الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٩٩٩ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣١٩ — الثلاثاء ٢٣ من صفر سنة ١٣٦٤ — ٦ من فبراير سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

صفحة			صفحة		
١	على هامش الحوادث ...	(***)	١٣	كتابان في الأحكام السلطانية	الأستاذ أحمد عبد الباقي
٤	منطق الفن ومنطق الحياة	الأستاذ أحمد أمين بك ...	١٨	سجل ... بائع الكتب	الأستاذ حسن فتحي خليل
٦	في وحي ... (قصيدة)	الأستاذ أحمد الزين ...	٢٢	[illegible] ...	الدكتور أحمد [illegible] ...
٧	ما هنا وما هنالك ...	الأستاذ عزيز خانكي بك	٢٤	[illegible] الشاعر ونفس أخرى	الأستاذ صديق شيبوب ...
٩	الحركة الدستورية في إنجلترا	الأستاذ عبد الحميد [illegible]	٢٥	... المسرح والمروءة ... العربي	الدكتور أحمد زكي بك ...
١١	تطور الكائنات الحية والجامدة	الدكتور ... موسى			

على هامش الحوادث

الزيارة الملكية :

كانت زيارة جلالة الملك فاروق لجلالة الملك ابن السعود في أرض الحجاز مفاجأة سارة للعالم العربي ، ودليلا على أن مشروع الجامعة العربية قد جاوز مرحلة الكلام والأماني ، ودخل في دور التنفيذ العملي ، ومع أن هذه الزيارة كانت زيارة شخصية لا ترمي لغير تبادل المودة والإخاء ، وتوثيق روابط المحبة والوئام بين العاهلين الكبيرين ، فإنها جاءت متوجة للجهود السياسية التي نجحت في كسب موافقة عاهل الجزيرة على بروتوكول الإسكندرية ، وقبوله الاشتراك في مؤتمر الجامعة العربية الذي ينتظر عقده بعد حين .

وقد تجلت في مقابلة الملكين العظيمين السجايا العربية الكريمة ، والروابط الروحية الوثيقة التي تجمع بين أبناء العروبة ، ووحدة الأهداف السامية للشعوب العربية على تباعد أقطارهم .

ولنا أن نتوقع لهذا الحادث السعيد نتائج كبيرة ، وأن يعده فاتحة عهد جديد يقرب بين الأمم العربية ، ويحقق تعاونها الصادق على مواجهة الأحداث الدولية المرتقبة جبهة واحدة متضامنة القوى ، موحدة الصفوف .

اللجنة الثقافية للوحدة العربية :

وقد يكون من حسن الاتفاق أن فرغت اللجنة الثقافية للوحدة العربية من مهمتها ، بعد أن أتمت إعداد برنامج شامل يحقق التعاون الثقافي بين الأمم العربية ، ويكفل زيادة الاتصال الذهني بينها . ولعل البدء بهذه الناحية الروحية من أقوى الدلالات على إدراك قادة هذه الشعوب

للأسس الصحيحة التي يقوم عليها التفاهم بين الأمم ، وإنا لنرجو أن نوفق لبيان جهود هذه الهيئة وقراراتها في عدد قريب من أعداد الثقافة .

الاضطراب في سوريا ولبنان :

وشاء القدر أن تفتح عيون الشعوب العربية في نفس الوقت على ما يستهدفون له من أخطار توجب ازدياد تضامنهم وتكاتفهم ، فقد بدا من تصرف فرنسا حيال سوريا ولبنان ما يدل على تمسكها في تنفيذ عهودها ، وتشبثها بسلطانها على أمور الجيش فيهما ، وهو تشبث يتنافى مع استقلالهما الذي اعترفت به كبريات الدول . وإذا كان هذا شأن فرنسا مع ما هي فيه من موقف دولي جدير بأن يشغلها بأمر نفسها ، ويصرفها عن المطامع الخارجية ، فكيف يكون الحال مع غيرها ؟

وفلسطين أيضا :

كيف يكون الحال في مواجهة مشكلة فلسطين التي تتعقد على الأيام ، والتي يواجه بها العرب عوامل قوية تناهض حقوقهم وتحول دون تحقيق آمالهم من كثير من النواحي .

إن اجتماع كلمة الشعوب العربية ، وتوحيد جهودها هو السلاح الوحيد الذي تستطيع أن تدافع به عن كيانها وتذود عن حياضها .

اجتماع الأقطاب الثلاثة :

جاءت الأنباء بقرب اجتماع الأقطاب الثلاثة : ستالين وتشرشل وروزفلت ، بل الراجح أن هذا الاجتماع قد حدث بالفعل في مكان سيكتمون ذكره . واجتماع هؤلاء الأقطاب عقب الانتصارات الأخيرة التي أحرزها الروس ، وبعد توغلهم في ألمانيا ، وقرب تهديدهم لعاصمتها يدل على أنهم سيتناولون تحديد موقفهم من ألمانيا التي توشك أن تنهزم ، وتقرير ما سيملونه عليها من شروط .

ولابد أن يتشاوروا في هذا الاجتماع على المبادئ التي سيضعونها لبناء العالم الجديد ، والسياسة التي سيطالبون بها أمم الأرض .

ففي هذا الاجتماع الخطير سيتقرر مصير العالم في فترة من الزمان تطول أو تقصر ، بقدر ما في قراراته من عدل أو حيف ، وما يسودها من بعد النظر ، أو تأثر بالانفعالات الوقتية .

فيا ليت شعري ماذا خبأه القدر لأمم الأرض ، وهل سنشهد عالما جديدا يسوده السلام والطمأنينة أو ستتكرر المأساة ، وتتغلب الشهوات والمطامع ، ونشهد بعد زمن قصير حربا ثالثة لا تبقي ولا تذر ؟ إن آمال الملايين التي تعيش على ظهر هذا الكوكب تتطلع لهؤلاء الأقطاب وتطالبهم أن يحاكوا أبطال الإنسانية المتقدمين ، ويشيدوا السلام الدائم ، ويرسوا النظام العالمي السعيد .

البرلمان :

يبدأ البرلمان جلساته ، ويشغل فيما يعقده من الاجتماعات بتشكيل لجانه وتكوين مكتبيه . وتدل الظواهر على أن المعارضة القوية ستكون في مجلس الشيوخ ، وإن كنا نرجو أن تكون معارضة هادئة رزينة نافعة . ويبدو أن المعركة الحامية ستكون حول دستورية بعض القوانين التي أصدرتها الحكومة الحاضرة ، وأخصها ما يتصل منها بالانتخابات .

وبمناسبة الحديث عن البرلمان ، يتساءل البعض : لماذا لا تعمل الحكومة على إشاعة الحياة النيابية في البلاد بتقوية المجالس البلدية ، والمجالس القروية ، ومجالس المديريات ، وتوسيع اختصاصاتها ، والتنازل عن جزء من السلطة المركزية لهذه الهيئات المحلية ؟ إن مثل هذا التشريع كفيل بتربية الشعب على الحياة النيابية ، وتعويده الاضطلاع بالشئون العامة والمساهمة في احتمال تكاليفها .

ومن شأن هذا النظام أن يدرب الناخبين على حسن استخدام أصواتهم وصراحة محاسبتهم للنائبين عن كثب، كما أنه سيكفل إبراز الكفايات النيابية فيمن ينتخبون فيكون ذلك تمهيدا حسنا للتقدم لعضوية البرلمان. وفيه عدا ذلك زيادة في الاهتمام بالشئون العامة بشكل أقليمي، وتقليل من الأعباء التي تتحملها الحكومة والمسائل الصغيرة التي تشغل وقت البرلمان.

إن الفكرة، فيما يبدو، جديرة بعناية الحكومة، خليقة أن تضعها في طليعة المسائل التي تشتغل بها

ازدياد أعباء الحكومة :

ويسوقنا الحديث عن الحكومة إلى ثقل الأعباء الملقاة على كاهل الحكومة، وعظم المسئوليات التي تضطلع بها

وأعباء الحكومة في الظروف العادية كبيرة تتطلب كفاية عالية وعملا متواصلا، وحكمة فائقة. فكيف والظروف التي تواجهها الحكومة [illegible] والمشاكل القائمة التي يطلب إليها [illegible] معقدة شائكة؟

فمثلا كل التموين وعدالة توزيعه على أفراد الشعب، ومحاربة السوق السوداء، والغلاء المضطرد، وتدبير المواد الضرورية للبلاد واستيرادها من الخارج.

ومشاكل الطوائف المختلفة، ومطالبها المتعددة، والتوفيق بين ما أخذ من قرارات الإنصاف ومقتضيات العدالة بالنسبة لمن لم ينصفوا.

ومشكلة الميزانية وتضخمها، ومصروفاتها الكثيرة التي ربطت على إيرادات غير ثابتة، والاستعداد لآثار ذلك في المستقبل.

ومشاكل المرض والجهل والفقر، التي تنخر في عظام سواد الشعب، ووضع الخطط القوية البعيدة المدى لمكافحتها، وتنظيم الحياة الاقتصادية في البلاد، والنهوض بالإنتاج، ومشاكلنا السياسية الكبرى، وتحديد مركزنا الدولي على أساس يحقق أمانينا ويحفظ عزتنا القومية.

كل هذه وآلاف غيرها من المشاكل الحاضرة، والمشاكل التي ستطلع علينا بعد انتهاء الحرب خليقة أن تشغل رجال الحكومة وتملأ مناصبهم، وتستغرق كل تفكيرهم

فإذا قدرنا عظم هذه المهمة الملقاة على عواتقهم، كان واجبا علينا أن نعاونهم أجل معاونة، وألا نزيد أعباءهم بما نثقل به كاهلهم من المسائل الصغيرة، ونشغل به أوقاتهم من الأمور التافهة

ليس من العدل، ولا من المصلحة، أن يغشى أبواب الوزراء كل من له مطلب صغير أو مسألة خاصة، يمكن أن تحل بالطرق العادية، ليشغل الوزير ويضيع جزءا من وقته الثمين بالاهتمام بهذه الجزئيات، مهما كانت صلته بهذا الوزير، ودالته عليه.

وليس من الوطنية ألا تفكر الجماعات إلا في مطالبها [illegible] الصغيرة، وتلح في أخطر الساعات وتشغل بها [illegible] بالمسائل الإقليمية والإلحاح المتكرر.

[illegible] واجب الحكومة أن تأخذ هذه الأمور [illegible] وتقضي على كل هذه المشاغل الصغيرة بشكل سياسة استرضاء الجماعات، وبذل الوعود. وخير ما نقترحه أن تخصص لهذه الشكايات مكتبا خاصا يدرسها بإمعان ويضع الاقتراحات العملية لإنصاف كل ذي ظلامة.

منطق العقل ومنطق الدنيا

من الأقاصيص الشعبية المصرية أن رجلا تزوج اثنتين ؛ فأما «أم السعد» فشابة لعوب على حظ قليل من الجمال وعلى حظ كبير من المرح والفتنة وخلب العقول والدهاء والمكر . وأما «أم حسن» فشابة على حظ كبير من الجمال وقليل من الحيلة ، طيبة القلب ، عفيفة النفس ، طاهرة الذيل .

أراد زوجهما السفر فاتخذ كل احتياط لصيانتهما ، على طريقة العهد القديم ، فسمر الشبابيك حتى لا تفتح في غيابه ، وتفنن ما شاء في القيود والأقفال ، ووضع الأرصاد على البيت حتى لا يقربه من يخونه ، ثم سافر مطمئنا .

فأما «أم السعد» ففكت القيود ، وكسرت الأقفال ، واحتالت على الأرصاد ، وخرجت وطارت ؛ وأما «أم حسن» فحفظت عهد زوجها ، وصانت عرضه ، وحافظت على شرفه ، فلم تخرج من بيتها ، ولم تحاول فك الأقفال ، وكانت أمينة في كل شؤونها .

فلما كانت ليلة حضور الزوج تزينت «أم السعد» وتبرجت ، وفعلت كل صنوف الإغراء والفتنة ، وأما «أم حسن» فاعتمدت على استقامتها وطهارتها ، فلم تبالغ في زينة ، ولم تفرط في تجمل .

وحضر الزوج ، فهبت «أم السعد» لحضوره ، وتصنعت كل ضروب الفرح بلقائه ، وفعلت الأفاعيل لإغرائه ، وقابلته «أم حسن» في هدوء واتزان ، وحشمة وثبات .

ثم أخذا في الحديث ، فبرحت «أم السعد» وأخذت تصف كيف حافظت على عهده ووفت بأمانته ، وكيف كانت لا تنام الليل شوقا إليه ، وحنينا للقائه — ومن حين إلى آخر تتكلم «أم حسن» كلمة أو كلمتين تعليقا على حديث أو ردا على سؤال .

وأخيراً نظر الزوج إلى أم السعد طويلا ، ثم أدار نظره إلى أم حسن طويلا ، ثم أعلن أن لأم السعد كل ما أتى به من هدايا ، ولأم حسن الطلاق .

هكذا منطق العقل ومنطق الدنيا ، فمنطق العقل يقضي بالمكافأة للطاهرة العفيفة الجميلة ، ومنطق الدنيا قضى بها للمهرجة اللعوب غير الجميلة .

منطق العقل يقضي بأن الإنسان يقوم بمواهبه وكفاياته ، كشكل شيء في العالم ، فنحن نقوم الفرس بسرعته لا بسرجه ، وكل شيء بالغرض منه لا بشكله ؛ وعلى هذا فالإنسان يجب أن يقوم بكفايته فيما أريد منه ، فإن أردته صانعاً فقومه بصناعته ، أو عالماً فقومه بعلمه ، أو لمنصب من المناصب فاخبر من يحقق الغرض من المنصب . هذا في منطق العقل ، وأما في منطق الدنيا فإنه يقدر بمظهره قبل مخبره ، وبقرابته قبل كفايته ، وبملاءمته للظروف . منطق العقل مبني على التجريد من الاعتبارات ، ومنطق الدنيا مبني على تقدير الملابسات . منطق العقل أساسه تقدير الشيء بما فيه من نفع وضر ، فلا وزن فيه لعمل ولا إرث . ومنطق الدنيا أساسه رضا فلان وغضب فلان ، ورضاء فلان وانتقام فلان ، وإغاظة فلان ، وهكذا من اعتبارات لا حد لها .

منطق العقل مقدمة صغرى ومقدمة كبرى ، إن صحتا فالنتيجة حتماً . ومنطق الدنيا قد تصدق فيه المقدمات وتكذب النتيجة ، وقد تكذب فيه المقدمات وتصدق النتيجة .

منطق العقل كباحث في معمل يجرب ويرصد التجارب ، فإذا أسفرت التجربة عن لون أحمر قال إنه أحمر ، أو أصفر قال إنه أصفر ، ولا شيء غير ذلك . وأما منطق الدنيا فكالممثل على المسرح يوماً باكياً ويوماً ضاحكاً ، ويوماً غنياً ويوماً فقيراً ، على حسب الظروف .

الحيوية منطق الدنيا ، والعدل منطق العقل ، وتقدير

الأشكال منطق الدنيا ، وتقدير القيمة الذاتية منطق العقل .

* * *

الأمس حضرت مجلساً دار الحديث فيه حول رسم المصحف ، فقال قوم : إن من الواجب أن رسم المصحف حسب قواعد الإملاء المعروفة ، حتى يستطيع الناشيء أن يقرأه ، والرجل المثقف العادي أن يقرأه كما يقرأ كل كتاب . أما الرسم الحالي فلا يمكن القارىء من أن يقرأ إلا اذا كان حافظاً أو متخصصاً ، فكيف يستطيع الناشيء أن يقرأ الصلاة اذا رسمت هكذا « الصلوة » ، وخير أن يُنشر قراءة القرآن على الناس عامة من أن نحصر قراءته في دائرة ضيقة . أما رسم المصحف الحالي فيكون للخاصة ومن يريدون أن يدرسوا تاريخ الإملاء . وإننا نفسد تعليم الناشيء اذا نحن علمناه الإملاء على طريقتنا ثم وضعنا في يده المصحف فرأى طريقة لم يألفها . وقال قوم لابد من المحافظة على رسم عثمان حفظاً لآثار السلف الصالح وعملا بالمأثور ، وربطاً بين قديمنا وحديثنا ، فقلت رأيي في هذا النزاع : منطق العقل ومنطق الدنيا .

وشاء القدر أن أحضر مجلساً آخر جرت فيه المناظرة حول معاهد اللغة العربية . فقال قائلون : أمن الحق أن يتوزع تعليم اللغة العربية — دون سائر المواد — ثلاثة معاهد : كلية اللغة العربية في الأزهر ، ودار العلوم ، وقسم اللغة العربية في كلية الآداب ، وكل يسلك منهجاً يخالف الآخر حتى اذا أتموا دراساتهم كانت بينهم حرب شعواء على الوظائف ! أليس من الخير ألا يكون في البلد إلا معهد واحد يختار له خير المناهج وخير الأساليب ، كما هو الشأن في كل المواد ؟ وقالوا أيضاً : إننا نفهم أن يكون في البلد مائة معهد للثقافة أما للصناعة ، ولصناعة التعليم ، فلابد ألا نزيد إنتاج المصنع عن حاجة البلد . وقال آخرون : إنها التقاليد ، وإنها السلطات ، وإنها العصبيات .

فخرجت من المجلس مفكراً في منطق العقل ومنطق الدنيا .

وركبت « الترام » ، وجلست بين جماعة ينقدون بألسنة حداد حالة الوظائف والموظفين ، وكل يشكو ويضرب الأمثلة في وزارته مما حدث من ترقيات ، هذا للقرابة ، وهذا للمصاهرة ، وهذا للملق ، وهذا للهتاف ، وهذا لتقبيل اليد ، وهذا للمصالح الشخصية .

فقلت إن هذا يوم غريب تتابع كل حوادثه التمثيل لمنطق العقل ومنطق الدنيا .

ورجعت بذاكرتي إلى أقاصيص جحا ، وما في كتب الأدب من أقوال عقلاء المجانين ، فوجدت كثيراً منها يعجب الناس لأنها تصور الفرق بين منطق العقل ومنطق الدنيا .

والناس يضجون بالشكوى ، لأنهم لم يفهموا الفرق بين منطق العقل ومنطق الدنيا ، وأرادوا أن يخضعوا الدنيا لمنطق العقل ففشلوا .

والشعراء والأدباء رأوا أنهم لكفاياتهم أحق بخيرات الدنيا من كثير ممن هم من الحمقى والمغفلين ، وهذا منطق العقل ، ثم رأوا الدنيا في يد أقل الناس كفاية ، وأنهم محرومون حتى من ضرورات الحياة ، على حين أن المغفلين يرفلون في النعيم ، وهذا منطق الدنيا . فأطلقوا ألسنتهم أقاموا حرباً شعواء على الناس ، وقالوا آلاف الأبيات في شكوى الزمان وأنه متغفل يحابي المغفلين ، ويضطهد العقلاء والأدباء ، وأنه لا عقل له ولا منطق له ، وجردوا منه شخصاً وجهوا إليه أقطع السب وأقذع الهجاء ، وما دروا أن للدنيا منطقاً تخضع له غير منطقهم ، وأسلوباً تتبعه غير أسلوبهم

وأكثر ما يظهر منطق الدنيا في السياسة ؛ فقد أراد الفلاسفة من عهد أفلاطون وأرسطو أن يخضعوا منطق السياسة لمنطق العقل ، فوضع أفلاطون جمهوريته ، وأرسطو كتابه في السياسة ، والفارابي مدينته الفاضلة ، وهكذا تتابع الفلاسفة يرسمون المثل الأعلى للحكومة والسياسة ، يريدون أن يخضعوا كل شيء في الدولة لمنطق العقل ، والسياسة دائماً تتمرد عليهم ، وتأبى إلا أن تخضع لمنطق

الدنيا ، وكان صفا ، والآن إلى أين ؟ والحق ، فقد وضع نظام العالم على أساس منطق العقل ، وما زال منطق الدنيا يحاربه بأسلحته حتى هزمه شر هزيمة .

وربما كان « مكيافلي » هو الشخص الذى دوّن منطق الدنيا بعد أن جرب الحياة الواقعية وخبر لأمته عند الملوك والأمراء ، فنادى بأن السياسة لا تخضع للعقل والعدل والحق ، وإنما هى تخضع لطبائع الناس وظروف الزمان والمكان ، وقال إن السياسة يجب أن تعرف الخير والشر ، ولكن لا بأس من أن تنحرف عن الخير تبعا لضرورة الظروف القاهرة — وقرر بعض مبادئ منطق الدنيا ، فقال : « إن الناس أسرع إلى الإساءة إلى من وضع نفسه من قلوبهم موضع الحب ، منهم إلى من جعل نفسه مخوفا مهيبا » وقال : « إن الأمير يجب أن يكون أسداً ، ولكن ينبغى له أن يتعلم كيف يلعب دور الثعلب » ، وهكذا أراد أن يشرح منطق الدنيا كما شرح أفلاطون وأرسطو منطق العقل ، ولكن [illegible] يستطيع أن يدوّن كل منطق الدنيا كما دوّن من قبله منطق العقل ؟ إن الذى وضعه جزء بسيط من منطق السياسة ، وما السياسة بجانب الدنيا كلها ؟ . لو كنت مكانه لوضعت قواعد منطق الدنيا فى سلوك الإنسان وفى كيف يقدر الإنسان الإنسان ، وكيف يصل الإنسان إلى أغراضه مع اشباهه لمنطق العقل ، وكيف يصل رجال الحكم غشا مع منطق الدنيا ، وكيف تقف الفضائل والأوضاع أمام منطق العقل لتفسح الطريق أمام منطق الدنيا وهكذا ، ولجعلته مائة فصل وجعلت ما كتبه مكيافلي من السياسة فصلا واحداً من فصوله .

فى كل شىء يصطدم منطق العقل مع منطق الدنيا ، فى الأسرة ، فى الشارع ، فى المتجر ، فى المصنع ، فى الوظيفة ، فى الحياة الخاصة والعامة ، فترى العقل فى ناحية والدنيا فى ناحية ، وكلما كان الإنسان أرهف حسا وأكثر تفننا ، وأرقى عقلا ، كانت صدمة الدنيا له أقوى وأشد

ومع هذا فأظن أن العالم سائر إلى التقدم فى الاستزادة من منطق العقل ، والتقليل من منطق الدنيا ، ومقياس ذلك الأمم المنحطة والأمم الراقية ، ففى الأمم المنحطة منطق العقل يسبح فى دائرة قطرها « سنتى » ، ومنطق الدنيا يسبح فى دائرة قطرها ألف متر ، وفى الأمم الراقية تكاد تتعادل الدائرتان ، أو تكون دائرة منطق العقل أوسع ، وليس عمل المصلحين فى الدنيا دائما إلا أن يحاولوا توسيع دائرة منطق العقل وتضييق دائرة منطق الدنيا

أحمد أمين

فى مغنٍّ سبى الصوت سقيم الفن

« للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين »

« وكان قد دُعى إلى سماعه فى إحدى الليالى فتبرّم بغنائه تبرّما شديداً ، وقال فيه » :

[illegible] التهويم
ضيق به التجلد أىّ ضيق
[illegible] ويُمشى
بقايا الشوق فى قلب المشوق
ثمن الأوتار لو أمست سياطا
يُصبّ بها على الجلد الصفيق
بطانته — تعالى الله — رهط
كأنّ صياحهم جَرَسُ الحريق
ودقّ الشاع رقصُ سُوق
فلك عزفتُ عصرك بالإبريق
وكانت ليلة بالبيت أنى
دُعيتُ بها لأقطاع الطريق
وأسمعنا مغنّيها غناءً
يُزيل السكر من كأس الرحيق
جزى الله المغنى كلّ خير
عرفتُ به عدوّى من صديقى

ما هنا وما هنالك

ما هنالك

إذا أردت أن تعرف بالمشاهدة قوة العلم وقوة المال وقوة الإرادة فاسمع واحكم :

في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ضمت مملكة بلجيكا الصغيرة إلى أملاكها بلاد الكونغو الكبيرة . ومساحة بلاد الكونغو المستعمرة أكبر من مساحة بلجيكا المستعمرة ثمانين مرة . إن بلاد الكونغو على اتساعها كان يسكنها أقوام همج . وبلجيكا على صغرها يسكنها أقوام لهم حضارة من الطراز الأول حتت بهم إلى مصاف أعظم دول العالم مدنية ، ازدهرت فيها العلوم والفنون ، وراجت فيها الزراعة والصناعة والتجارة . ومنها أنشئت بلاد كثيرة . أعرق منها مدنية وأغزر مالا . [illegible] وأقل سلطانا . وأوسع أرضا ورجالا .

عند ما فكر ملك بلجيكا ليوبولد [illegible] — جد الملك الحالي — في استعمار بلاد الكونغو ، كانت هذه البلاد غير معروفة وكان العلماء يسمونها « مجاهل أفريقيا » لأنها واقعة في قلب أفريقيا . وكان الرحالة الأوربيون يسمعون بها ولا يعرفونها . فلما ملكها ليوبولد الثاني ملك بلجيكا لنفسه خاصة وأنفق عليها كل ثروته — من مخصصات ومجوهرات ومدخرات — أهداها في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٨ إلى بني وطنه . وكانت تقدر وقتئذ بملايين ملايين من الجنيهات ذهبا وعاجا .

ولاستعمار واستثمار بلاد الكونغو أنفقت الحكومة البلجيكية والشركات البلجيكية ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ذهبا فأصبحت الآن جوهرة في تاج الملك . وخطت خطوات واسعة في طريق العمران .

وإذا أردت الدليل بلغة الأرقام فهاكه :

في البداية لم يكن في بلاد الكونغو مدرسة واحدة فأصبح فيها الآن ١٣٫١٥٦ كتابا . تعلم وتهذب وتثقف ٦٠٧٫٤٩١ من الأطفال . وفيها ٤٫٢٠٠ مدرسة متوسطة تعلم وتهذب وتثقف ٢٨٠٫٠٠٠ تلميذ . وفيها مدارس تجهيزية تعلم وتهذب وتثقف ٣٠٢١ تلميذا وفيها مدارس كلية ، تعلم ٤٫٤٧٧ تلميذا . ومدارس صناعية تعلم وتدرب ٥٠٨٧ تلميذا . هذه هي المدارس الأميرية يضاف إليها مدارس أخرى كثيرة تديرها معاهد علمية وجمعيات خيرية . أنشأت واحدة منها ٩٠٠ كتاب ، تعلم ٢٥٠٫٠٠٠ طفل و ٢٠٠٣ مدرسة ابتدائية تعلم ٣٠٫٠٠٠ تلميذ و ٣٠ مدرسة للفنون والصنائع و ٢٠ مدرسة ثانوية ومدارس أخرى كثيرة تخرج ممرضين وممرضات تضم ٤٠٠ طالب .. فما رأيك في هذه الجهود الجبارة وفي هذا الإصلاح العظيم ؟ بعد أن كان الواحد منهم لا يميز بين التمرة والجمرة أصبح منهم المهندس والطبيب والميكانيكي والمزارع والصيدلي وما إلى هذه المهن .

و[illegible] الاستغلال ما كان في بلاد الكونغو [illegible] . في سنة ١٩٢٨ بلغت مساحة [illegible] قطنا ٢٨٤٫٠٠٠ فدان فقربت إلى ٨١٠٫٠٠٠ فدان في سنة ١٩٤٣ وزراعة الأرز نمت من لا شيء إلى ٢٣٠٫٠٠٠ فدان . والنخل من صفر إلى ٢٥٠٫٠٠٠ فدان . والبن من العدم في سنة ١٩١٣ إلى ٢٥٠٫٠٠٠ فدان . والكاكاو من ١٠٫٠٠٠ إلى ٣٠٫٠٠٠ . وبعد أن كانت بلاد الكونغو لا تصدر في سنة ١٩١٣ شيئا من القطن صدرت في سنة ١٩٤٣ نحو ٣٢٤٫٠٠٠ قنطار . وبعد أن كانت تصدر طنا واحدا من البن في سنة ١٩١٣ صدرت ٣٠٫٠٠٠ طن في سنة ١٩٤٣ . والسكر زاد تصديره من ٩ أطنان في سنة ١٩١٨ إلى ١٢٫٠٠٠ . والجوز تقدم من ٧٫٢٠٠٠ في سنة ١٩١٣ إلى ٩٣٫٠٠٠ . والزيت من ٣٫٠٠٠ إلى ٩٦٫٠٠٠ والذرة من لا شيء إلى ١٢٫٠٠٠ طن . والشعر اللازم للعمليات الجراحية من لا شيء إلى ١٫٥٠٠٫٠٠٠ قطعة . وهكذا .

أما المعادن فحدث عنها ولا حرج . فالذهب وصل

المستخرج منه ٢٠٫٠٠٠ كيلو جرام بعد أن كان سواء والعدم. والماس الصناعي صعد بعد عشر سنوات من لاشيء في سنة ١٩١٣ إلى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ قيراط، ثم قفز إلى ٥٫٠٠٠٫٠٠٠، ثم وثب إلى ٧٫٥٠٠٫٠٠٠، إلى أن بلغ في سنة ١٩٤٣ ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠. والنحاس من لاشيء في سنة ١٩١١ صعد بعد عشر سنوات إلى ٥٠٫٠٠٠ طن ثم إلى ١٠٠٫٠٠٠ طن ووصل ١٥٠٫٠٠٠ في سنة ١٩٤٣. والقصدير لم يستخرج منه شيء في سنة ١٩١٥ فاستخرج منه ٥٫٠٠٠ طن في سنة ١٩٢٥ ثم زاد تدريجيا إلى أن بلغ ١٠٫٠٠٠ في سنة ١٩٣٠ و١٥٫٠٠٠ في سنة ١٩٣٥ وهو الآن ٢٠٫٠٠٠ طن. فماذا تقول في هذا التقدم السريع الرائع؟

هذا عدا ما استخرج من المعادن الأخرى والمواد الأولية مثل السكر والراديوم والصمغ والكينا والكاوتش والغلال والأخشاب والكاكاو، وهنا زيوت النواتي وغيرها وغيرها. وهنا المصانع التي تشتغل بالغزل والنسيج. وكل هذا لم يكن شيئا [illegible]

وتسهيل المواصلات مدت [illegible] سكة حديدية طولها ٥٫٠٠٠ كيلو متر، بلغت نفقتها [illegible] مليونا من الجنيهات، فكانت في جسم بلاد الكونغو كالشرايين في جسم الانسان. ومدت قناطر وجسورا وطرقا وحفرت وطهرت ونظمت الترع على مدى ١٫٠٠٠ كيلو متر. والطرق الزراعية كانت في أول عهد الاستعمار لا تذكر، فبلغ طولها ٢٫٦٥٠ كيلو مترا في سنة ١٩١٨، وهي الآن ٣٤٫٠٠٠ كيلو متر.

والطيارات تقطع سنويا ملايين الكيلو مترات، فطائرات شركة سابينا وحدها قطعت في خلال هذه الحرب ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ كيلو متر منها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو متر في الأعمال الحربية، وبلغ مجموع ما قطعته طائرات الكونغو كلها ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو متر.

وأصبح للكونغو أسطول جوي وأسطول نهري لخدمة الأغراض السياسية والحربية والتجارية والصناعية. وعنيت حكومة الكونغو بالصحة العامة، فشيدت مستشفيات ومصحات وصيدليات ومدارس للممرضين والممرضات. كما أنشأت معامل كيماوية لصنع جميع أنواع المصل الواقي من الأمراض. وتدل الاحصاءات الرسمية على أن ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من الأهالي عولجوا في عيادات خارجية ومستشفيات الحكومة وحدها تعالج مليون شخص كل سنة. وقد بلغ عدد الذين دخلوا مستشفياتها في السنة الماضية ١٫٠٠٠٫٠٠٠، وبهذه العناية الفائقة تلاشت بعض الأمراض، وقلت الوفيات، وزاد عدد السكان، وتحسنت الأحوال الصحية.

وساهمت الملكة بنصيب كبير في تكاليف هذه المنشآت. كما ساهمت المعاهد العلمية والجمعيات الخيرية وبعض جامعات بلجيكا في الإعانات التي لزمت.

ونشر لواء الأمن والعدالة، وأنشأوا دورا للقضاء كما أنشأوا السجون، ومراكز للبوليس ومكاتب للبريد والتليفون والتلغراف السلكي واللاسلكي. وما كان شيء من هذا موجودا من قبل.

[illegible] حرية الأديان والحرية الشخصية [illegible] وحرمة المساكن وحرمة الملكية. وبهذا انقطع دابر النخاسين وقطاع الطرق. وقل المجرمون والمتشردون والعاطلون.

وكان من نتائج هذا العمران الباهر أن أقبل السياح على زيارة هذه البلاد — على بعد الشقة وعناء المشقة — يتفقون فيها من سنة. وكان التجوال فيها من قبل نوعه شيب الغرائب.

هذا قليل من كثير. والقليل دليل على الكثير.

هذا ما عملته بلجيكا الصغيرة. أنفقت ٣٠٠ مليون جنيه لتمدين أمم وشعوب وقبائل خيم عليها الجهل آلاف السنين. والكونغو بلاد تزيد ٨٠ مرة على مساحتها. فالله أكبر.

وما هنا

قارن بين ما عملته بلجيكا الصغيرة (هناك) وما عملته مصر الكبيرة (هنا) تدرك الفرق بين (نشاطهم وجهودهم) و(نشاطنا وجهودنا).

عزيز خانكي

أحاديث عن مراكش :

الحركة الدستورية

احتفلت مراكش فى ١١ يناير بمرور السنة الأولى على مطالبة الشعب بالاستقلال وتنظيم الحياة العامة على أساس النظام الدستورى الشكلى ؛ ولا يعنينا هنا التعرض لما قابل به الفرنسيون هذه الحركة ، وإنما الذى يعنينا هو أن نتحدث إلى القراء الكرام عن مبدأ الحركة الدستورية فى هذه البلاد ، حتى يستطيعوا — وهم بعداء عن حركة الإصلاح فى شمال أفريقيا — أن يلموا بأصول النهضة الشعبية فى هذا الجزء من العالم العربى .

فى سنة ١٨٩٤ توفى السلطان مولاى الحسن ، آخر سلاطين مراكش الأقوياء ، الذين عرفوا كيف يسيرون سفينة دولة الاستقلال بين عواصف السياسة الدولية ، وخلفه على العرش ابنه الفتى عبد العزيز ، فانتشرت الفوضى فى البلاد نتيجة لضعف السلطان الجديد ، ومطامع الوزراء ، وتدخل الأجانب ، ولولا الظروف الدولية لسقطت مراكش فى ذلك الحين .

وفى سنة ١٩٠٤ بدأت السياسة الدولية تتجه بعد إعلان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، وهكذا بدأ ينهار الأساس الذى يقوم عليه استقلال مراكش وهو التعادل الدولى ، ولم تمض عن ثلاث سنوات حتى زحفت الجيوش الفرنسية على مدينة (وجدة) فى الشرق واحتلتها فى ٢٩ مارس سنة ١٩٠٧ ثم نزلت جيوش فرنسية أخرى فى مدينة (الدار البيضاء) فى يوليو من السنة نفسها ، وظهر بوضوح المصير المحتوم الذى ينتظر البلاد .

وقد شهدت البلاد بين هذين التاريخين ؛ والسنوات القليلة التالية ، حركة إصلاحية حاولت أن تنقذها من هذا المصير المروع الذى ينتظرها ، ومما ساعد على الحركة وشجعها أنها كانت معاصرة للحركة الإصلاحية التى قامت فى امبراطورية آل عثمان ، فقد كان زعماؤها يرون أن مراكش المتأخرة أصلح ميدان لبث الدعوة الإصلاحية ، ويروى أن الشيخ محمد عبده نفسه كان على أهبة السفر إليها لولا أن صحته حالت دون ذلك .

وقد كان عقد البيعة التى بويع على أساسها السلطان الجديد ، يعد برنامجاً واسعاً للإصلاح . والذى يعنينا من ذلك هنا هو الحركة الدستورية التى كادت تؤتى ثمارها فى تلك المهد .

كانت البلاد تشكو من ضعف السلطان ، واستبداد الوزراء ، فلا مناص فى الإصلاح لها من أن لا تبقى مقادير البلاد معلقة بسلطان أو وزير ، وإنما تنتقل إلى إرادة الشعب بواسطة النظم التمثيلية .

ظهر هذا الاتجاه بشكل واضح ، وكتبت عنه الصحف تشرحه وتدعو إليه ، ومما كتبته جريدة «لسان المغرب» التى كانت تصدر فى مدينة طنجة بعد سقوط السلطان عبد العزيز : «وبما أن يداً واحدة لا تقدر على إنهاض شعب من وهدة سقوطه ولا على إصلاح إدارة كإدارة حكومتنا ، فيجب أن تكون لأيدى المتصرفة والعقول المفكرة كثيرة ، متكاتفة على العمل ؛ وعليه ، فلا مناص ولا محيد لجلالته من أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب ، ويعطيها حرية القول والفكر ، لتقوم بإصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة ، المدنية والمسيحية » .

وقد جاء فى عقد البيعة نفسه أن السلطان يلتزم بأن لا يبرم أى اتفاق مع الأجانب إلا بعد أخذ رأى الأمة فيه . يقول : « وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب فى أمور سلمية أو تجارية ، فلا يبرم أمراً منها إلا بعد الصدع به للأمة حتى يقع الرضى منها بما لا يقدح فى دينها ولا عوائدها ولا استقلال سلطانها » .

وإذاً فالميول الدستورية واضحة وصريحة سواء فى الرأى العام وما تكتبه الصحف ؛ وكانت واضحة حتى فى

الجهات الرسمية، فالتزم السلطان بأن لا تسير السياسة مرة أخرى بدافع فردى وإنما بدافع جديد، هو رأى الأمة.

والواقع أن كل شىء يدل على أن السلطان عبد الحفيظ كان متحمساً لهذا الاتجاه الجديد وليس ذلك منه غريباً، فقد كان ملماً إلماماً واسعاً بالسياسة الدولية، وأحوال العصر الحضارية، كما كان مثقفاً ثقافة عالية، مكنته من أن يشاطر زعماء الإصلاح رأيهم فى الحياة النيابية.

ثم يكد يتحول الأمر حتى شكل لجاناً كلفها بدراسة النظام النيابى فى مختلف البلاد، واقتباس الصالح من هذه النظم لتطبيقه فى مراكش. وقد واصلت هذه اللجان أعمالها مدة طويلة، ثم استقر الرأى أولاً على الثناء القومى فى الأحكام ولذلك وضعت قانوناً للعقوبات أسمته «قانون الجزاء» لأن الحياة النيابية متوقفة قبل كل شىء على تحقيق المساواة والعدل بين أفراد الشعب.

وفى أواخر سنة ١٩٠٨ كانت هذه اللجان قد فرغت من إعداد مشروعها، وهو يقضى بإنشاء برلمان يطلق عليه اسم منتدى الشورى تمثل فيه الأمة على أساس انتخابى. كما يقضى بأن يتألف هذا البرلمان من مجلسين: أحدهما مجلس للنواب يسمى مجلس الأمة ويمثل الأمة فيه نواب من طبقات الشعب المختلفة، والثانى مجلس للشيوخ، ويطلق عليه اسم مجلس الأشراف، ويتألف أعضاؤه من طبقات الأعيان والنبلاء. كما صدر إلى جانب ذلك مشروع الدستور باسم القانون الأساسى، وقانون آخر يتعلق بالنظام الداخلى للبرلمان (اللائحة الداخلية)، وآخر يتعلق بنظام الانتخاب.

وليس من شأننا فى هذه العجالة أن نتحدث بالتفصيل عن هذا المشروع، وإنما يهمنا أن نشير إلى أن الحركة الدستورية فى مراكش ليست حديثة العهد وإنما ترجع أصولها إلى نحو نصف قرن من الزمان. وليس من الجديد فى شىء أن نسمع بأن هذه البلاد ما تزال تطالب إلى الآن بالحياة النيابية، وإذا كانت قد مرت عليها خمسون سنة وهى تطالب بها دون نجاح، فإنما يرجع ذلك إلى الظروف السياسية الشاذة التى أحيطت بها هذه البلاد.

فقد أخفق السلطان المرحوم مولاى عبد الحفيظ فى تنفيذ برامج الإصلاح بسبب التدخل الأجنبى، ووجد نفسه عاجزاً عن المضى فى سبيل إنقاذ بلاده، ومرغماً على توقيع معاهدة الحماية مع فرنسا بعد أن احتلت جيوشها مملكته جلها، وربما كان فى الأخير يرجو أن يستعين بهذه المعاهدة على تنفيذ مشروعاته الداخلية إذا استطاعت الجمهورية الفرنسية أن تتحمل عنه أعباء السياسة الخارجية والمالية، ولكن سرعان ما تبين له أن ما كان يرجوه إنما هو أضغاث أحلام، وأن الحقيقة السافرة هى أن بلاده لا تزال فى حاجة إلى مجهودات جبارة لإصلاحها بعد أن تخطت طريقاً جديداً فى الحياة. وقد بذل كل مجهود ليتفق مع الفرنسيين على هذا الأساس ولكنه أخفق، فآثر أن [illegible] على غيره يستطيع. واستقال.

وفى الساعة الخامسة من مساء يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩١٢ نقل العاهل العظيم إلى ظهر طراد فرنسى فى ميناء مدينة الرباط، وخرج أهل المدينة زرافات زرافات ليودعوا سلطانهم المستقيل، وأنصتوا بقلوب واجفة — فى ذلك الموقف التاريخى الرهيب — إلى الطراد الظافر، يطلق إحدى وعشرين طلقة، مؤذنة ببداية الرحيل. ثم أملى رسالة استقالته إلى رئيس الوزارة. قال فيها: إنه يستقيل لعجزه عن القيام بواجباته نحو الشعب.

هكذا بارح مراكش آخر سلاطينها المستقلين، ليقضى بقية حياته فى المنفى، وهكذا خلف وراءه بين أيدى القدر مشاريعه الإصلاحية، ومن بينها مشروع الدستور. على أن هذه البلاد، يوم تصل إلى حقوقها فى الحياة، لن تنسى أن مجهوداتها اليوم فى سبيل الدستور، إنما ترتكز على مجهودات السلطان عبد الحفيظ ورجاله الوطنيين.

عبد المجيد بن جلون

تطور الكائنات الحية

واتجاهه

[يتطور العالم الإنساني اليوم ، ولا شك ، نحو الاشتراكية ، وقد زادت الحرب الحاضرة من سرعة تطوره في هذا الاتجاه ؛ فهل من لزوم لهذا التطور؟ وما هي أسبابه؟ وهل يتفق اتجاهه الحالي مع الاتجاهات التي سلكتها الكائنات الحية في تطورها قبل اليوم؟ المسألة لا تخلو من الإجابة عليها إذا أردنا أن نكون فكرة عامة صحيحة عن قرب هذه التطورات الجديدة ، فلنطلب إذاً من العلم أن يلقي الضوء على هذا كل السياسة ....]

الحياة عنوانها الحركة والتطور ؛ أما السكون فهو شيم الجماد ، تلك سنة السكون من يوم أن تطورت الحياة في المادة ، وقد كان دارون أول من أتيح الناس ... فدلل على وجود التطور ، وبين اتجاهاته ، ووضح أسبابه فالكائنات الحية كلها ، من حيوان ... في تطور مستمر ، منذ وقت أن بدأت الحياة ... انتهائها ؛ ولكن التفاوت واضح فيما بينها في درجة التطور ومبلغ الرقي ؛ فأحقرها هي الأميبا ذات الخلية الواحدة التي لم تتطور قط أو تطورت تطوراً [illegible] — وأرقاها هو الإنسان ذو العقل الجبار الذي وصل في تطوره إلى أعلى رتبة بلغها كائن ما إلى يومنا هذا .

أما الغرض من هذا التطور ، فهو تقوية الكائن الحي في كفاحه المستمر ضد البيئة ؛ فهو يسعى للحصول منها على ما يلزمه لحياته وحياة نسله من بعده ، وهي تسعى من جانبها للحد من حياته ومنعه من التناسل ؛ ولا سبيل إلى توفيقه في سعيه هذا إلا إذا تطور وارتقى ، فازداد تبعاً لذلك قدرة على مجابهة بيئته . أما إذا بقي على حاله ، أو تطور تطوراً لا يكفي ، فالبيئة التي لا ترحم لابد متغلبة عليه فتوصله إلى المصير المحتوم ، فيموت الفرد وينقرض النوع . الهدف إذاً أمام الكائنات الحية مزدوج : المحافظة على حياة الفرد والمحافظة على نوعه ، ويقاس درجة رقي كائن ما بما يصيبه من نجاح في هذا الذي يستهدفه .

وقد سلكت الكائنات الحية كلها في تطورها طريقاً واضح المعالم ، فارتقت من خلية بسيطة كالأميبا تقوم بمفردها بكل مهمات الحياة الضرورية ، مستقلة عن غيرها استقلالاً تاماً ، إلى كائنات معقدة كل التعقيد تتكون من عدد من الخلايا لا يحصى ، ترتبط كل واحدة منها بباقي الجسم ارتباطاً وثيقاً لا يفصم سوى الموت عراه ؛ ولكل واحدة منها وظيفتها الخاصة لا تتعداها : فبعضها للتغذية ، وبعضها للتنفس ، وبعضها للتناسل ، إلى غير ذلك ؛ كما تتساند ... مجموعة خاصة من الخلايا ، هي المجموعة العصبية مهمتها التوفيق والتنسيق بين خلايا الجسم المختلفة .

... في عالم الحيوان والنبات يتحقق إذاً إلى ... ، وتتعدد وحداته ، ثم تتعاون هذه ... ، وتتخصص ، ثم تسند قيادتها إلى إدارة مركزية تتولى تصريف الأمور التي تتعلق بسياسة الفرد الداخلية في بيئته ، لتعمل على حفظ حياته وعلى الإكثار من نوعه .

لقد كان تطور الأجسام هذا هو المظهر الوحيد لتطور وارتقاء الكائنات الحية ونجاحها في علاقتها مع بيئتها دهوراً طويلة ، ثم سلكت الطبيعة طريقاً إضافياً ، فتطورت في بعض الكائنات غريزة جديدة ، هي الغريزة الاجتماعية ، وأخذت الكائنات التي من نوع واحد تتعاون فيما بينها لفائدة الجماعة بعد أن كان الفرد يعمل لمصلحته الذاتية فقط مستقلاً عن غيره استقلالاً يكاد يكون تاماً .

وقد بلغ من ارتقاء هذه الغريزة عند بعض الأنواع أن نظمت حياة الجماعة تنظيماً عجيباً ، فتخصص بعض الأفراد لأداء مهمات خاصة — كما تخصصت خلايا الجسم

الواحد قبل ذلك – وأسندت القيادة إلى فرد – كما أسندت خلايا الجسم قيادتها إلى المجموعة العصبية – وأصبح لها شكل النحل ، مثلاً ، الملكة المبائنة في المجتمع ، كما أصبحت حاجات الأفراد في مثل هذه الجماعات يُقضى بعضها بسعيه الخاص وبعضها بسعي الجماعة .

لكن الغريزة الاجتماعية لا تتطور في النوع الواحد ، فلا تقوى الصلة بين الأفراد ، ولا تتعقد نظم الجماعة ، فأسس التعاون ثابتة ، والنظم المتبعة في المجتمع جامدة فقد قامت على غريزة ، والغريزة لا تتغير . فالنحل والنمل مثلاً – وفيهما الغريزة الاجتماعية على أقواها وأرقاها – لا تتغير كثيراً أو قليلاً في نظم التعاون ، أو درجة التخصص أو مقدار تعقد الإدارة – لكنها تسير دائماً على وتيرة واحدة .

أما بين الأنواع وبعضها ، فقد تطورت الغريزة الاجتماعية قوة وضعفاً ، فظهرت بعض الأنواع وفيها الغريزة ضعيفة جداً كالماشية والقطط مثلاً ، تجمعها الغريزة [illegible] فيما هو اجتماعها في قطعان تشترك في [illegible] في الهجوم على الفريسة . أما في النحل والنمل ، فالغريزة فيهما ، كما أسلفت ، راقية قوية تشمل مرافق الحياة كلها .

لقد ارتقت الكائنات إذاً وازدادت نجاحاً في كفاحها ضد البيئة بطريقتين : ارتقاء الفرد أولاً ، وارتقاء العلاقات بين الأفراد ثانياً . فأما عن الطريقة الأولى فهي متبعة في كل نوع وفي كل فرد . وأما الطريقة الثانية ، فهي مقصورة على بعض الأنواع دون غيرها ، فمن الكائنات ما لا غريزة اجتماعية له البتة ، ولا يشترط أن يبلغ الفرد في تطوره الاجتماعي نفس المرتبة التي بلغها في تطوره الجسمي ، فقد يكون أرقى في الخاصتين أحياناً ، فالنحل مثلاً أقل رقياً في تكوينه الجسمي من الماشية ، لكنه أرقى منها بالإتقان في تنظيمه الاجتماعي .

خطت الطبيعة بعد ذلك في تطورها خطوة جديدة ، فظهر في العالم كائن جديد هو الإنسان ، يمتاز عن غيره من الكائنات بأنه يفكر . ولا يهمنا في هذا المقام أن ندخل في جدل نظري حول ماهية الفكر وطريقة ظهوره وهل يختلف ، أو لم يختلف ، عقل الإنسان عن إحساس الحيوان ؟ إلى غير ذلك من المناقشات التي لا طائل وراءها والتي لا تغير من واقع الأمر شيئاً . إنما الواقع هو أن الإنسان ، بما له من عقل مفكر ، قد نجح إلى حد كبير في كفاحه ضد بيئته ، فأصبح له الآن عليها سلطان عجيب وأصبح في مقدوره هو أن يؤثر فيها ويتغلب بعد أن كانت هي التي تتحكم في الكائنات كلها ، فتجبرها على التطور مجاراة لها وخوفاً لما قد يجره الجمود من موت وانقراض . فتسلط الإنسان على البحر والجو واليابسة ، وأخضع الحيوان والنبات لجبروته ، وسخر الجماد لخدمته .

ولا يرجع الفضل في نجاحه هذا إلى سعي الفرد ، ولا إلى [illegible] غريزة اجتماعية جامدة ، بل إلى المفكرة [illegible] من تلك الغريزة قوة نامية تعمل دائماً على ازدياد التعاون بين الأفراد وعلى تعقد نظم الإدارة عند الجماعة ، بعد أن كانت الغريزة عند باقي الكائنات الحية جامدة لا تتغير . وانتظم أفراد الجنس البشري في جماعات صغيرة ، كما انتظم غيرهم من الكائنات في ممالك النمل والنحل قبل ذلك . وأصبح الأفراد يعملون لصالح الجماعة لا لصالحهم الذاتية فقط ، كما أصبحت الجماعة تعمل لصالح كل فرد مكون لها ، وبدأ التخصص في الأعمال ؛ فقد كان الفرد قبل ذلك يقوم بمفرده بكل الأعمال التي تتطلبها حياته ؛ أما بعد انتظامه في جماعة فتخصص كل في عمل لا يأتي سواه ، فوجه بعضهم إلى الحصول على الطعام وبعضهم إلى إعداده ، وكلف غيرهم بالبحث عن مأوى ، وغيرهم بالدفاع عن الجماعة إلى غير ذلك .

كانت تلك الجماعات أول الأمر صغيرة ثم أخذت تكبر شيئاً فشيئاً ، فتطورت الجماعة من عائلة إلى قبيلة ،

كتابان في الأحكام السلطانية

فأيهما الأصل ؟

بين أيدينا كتابان في موضوع الأحكام السلطانية ، أحدهما لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي ، والآخر لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، وقد طبع الأول طبعته الأولى سنة ١٨٥٣[1] والثاني سنة ١٩٣٨[2] . ومن يمعن في هذين الكتابين يرى آثارا دقيقة وعلاقة قوية بينهما في نواح تدعو إلى الشك ، لأنهما يبحثان في موضوع واحد هو (السياسة الشرعية) ويتناولان أبحاثا متشابهة ويعالجان مشاكل واحدة ، ويتقاربان في زمن ظهورهما ، لأن المؤلفين معاصران لبعضهما — القرن الخامس الهجري — ومما يدعو إلى الدهشة ويوقف القارئ موقف الحيرة والتردد تقارب عبارات الكتابين واتفاقهما نصا ، إلا النزر اليسير فيما يختص بمذهب المؤلفين ، فيضيف الماوردي على الأحكام التي يذكرها ما يتعلق بمذهب الشافعي ، وأبو يعلى ما يتعلق بمذهب الحنبلي . أما الأصول التي يقوم عليها البحث في كلا الكتابين ، وكذلك الأبواب وتقسيم الأبحاث فهي متجانسة في الاثنين .

وأول ما يتبادر إلى ذهن الشخص في مثل هذا الموقف التساؤل : أنقل أحد المؤلفين عن الآخر في تصنيفه أم اعتمد كلاهما على مصدر آخر مجهول لدينا ؟ . ومن الطبيعي أن هذا يؤدي بنا إلى البحث عن السابق في التأليف ومدى اعتماد صاحبه عليه . ولا غرو فإن سؤالا كهذا يتطلب درسا عميقا لكل من المؤلفين ، ولاسيما ما يتعلق بحياتهما ومنزلتهما العلمية وأثرهما الفكري ، ومن ثم النظر في مؤلفاتهما الأخرى ، إن وجدت ، ومقارنتها بهذين الكتابين من حيث الأسلوب والآراء . وحينئذ يمكن الوصول إلى [illegible] شأنهما .

[illegible] الماوردي فكثيرا ما يقع [illegible] من ترجم حياته [illegible] في معظم كتب التاريخ والتراجم التي ألفت بعده ، مثل : وفيات الأعيان ، والوافي بالوفيات ،

(١) طبعة أنجر — R. Enger — في بون Bonn بألمانيا .

(٢) وقد طبع في مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، بعناية وتصحيح محمد حامد الفقي .

إلى قرية أو مدينة ، إلى دولة تقوم في مدينة واحدة كدول الإغريق مثلا ، إلى دولة تشمل مدنا كثيرة كدول أوربا الحالية ، إلى الأمبراطورية الواسعة التي لا تغرب الشمس عنها ، وقد أسندت الإدارة المركزية في كل مجتمع إلى حكومة لها الكلمة الأخيرة في مسائله ، فهي التي تدير دفة شئونه وتوجه سياسته ، وهي التي تعمل على حفظ النظام داخل المجتمع . وقد تعقدت نظم هذه الحكومات على مر الأيام ، وازداد التعاون بين الأفراد نموا ، كما ازدادت درجة التخصص في الأعمال ، وأصبحت الحكومات تهيمن على نواح متزايدة من نواحي نشاط الفرد ، وأصبحت في العالم نظريتان ، تقول إحداهما بزيادة التعاون بين الأفراد ، والتخصص في الأعمال ، وتعمل على توسيع سلطة الحكومات وتوحي بأن يضحي الفرد بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة المجتمع كله ؛ أما الثانية فتقول ببقاء الفرد حرا لا يخضع للجماعة إلا في القليل ؛ فترمي إلى الإقلال من سلطة الحكومات وتغلب حرية الفرد على مصلحة الجماعة . وقد انقسم الناس في كل بلد إلى حزبين يشتد التنافر والتناحر بينهما : يسمى الأولون بأهل الشمال ، ويسمى الآخرون بأهل اليمين . ونترك الكلام عن هذا النزاع بين أهل الشمال وأهل اليمين وتأثير الحرب فيه ، إلى فرصة أخرى

دكتور منعم حبيب درس

ومعجم الأدباء، والكامل في التاريخ، والمنتظم، وطبقات الشافعية، وغيرها ... والذي يدرس ما جاء عنه في هذه الكتب يراها تتفق في أنه توفي سنة ٤٥٠ للهجرة وله من العمر ست وثمانون سنة، وهذا معناه أنه عاش منذ منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس للهجرة. وقد كان هذا العصر عصر انحلال سياسي في الدولة الإسلامية، إذ تجزأت المملكة إلى دول متعددة، ولم يبق بيد الخليفة غير بغداد وأعمالها. وكان منصب الخلافة نفسه ألعوبة بيد القواد من الترك والديلم الذين أصبحوا ينصبون ويخلعون الخلفاء، تطميناً لرغباتهم وتنفيذاً لرغباتهم الخاصة ليس غير. على أن شبحاً لسيادة الخليفة ببغداد — كما يقول متز — لا يزال ماثلاً في أذهان الناس، فكان الملوك والأمراء المنفصلون عنه يعترفون له بالسيادة ويخطبون باسمه ويرسلون إليه الهدايا، محاولين بذلك الحصول على ألقابهم منه.

ومما يدعو إلى الاستغراب حقاً أن [illegible] الوقتي السياسية من أخصب العصور الإسلامية في الإنتاج الفكري من علوم وآداب وفنون. ولكن هذا الاستغراب قد يزول إذا ما نظرنا إلى الأسس التي وضعها الخلفاء العباسيون الأولون أمثال المنصور والرشيد والمأمون، فوصلوا بالدولة إلى أوج عزها السياسي واستقرارها الداخلي. ثم يجب ألا ننسى أن الملوك والأمراء الذين انفصلوا عن مركز الخلافة كانوا يتنافسون في تشجيع العلوم والآداب وتقريب العلماء وتشجيعهم، ولعل في هذا ما يفسر لنا ظهور الفلاسفة والأدباء والفقهاء والمحدثين الذين نبغوا في هذا العصر. وكان الماوردي ممن حظي بنصيب وافر من هذا التشجيع، فقد كان مقرباً من الخلفاء العباسيين، بدلالة ما يذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٠ من كتابه «الكامل» قائلاً: «وأرسل القائم بأمر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماوردي إلى الملك أبي كاليجار ليأخذ عليه البيعة ويخطب له في بلاده فأجاب وبايع وخطب له في بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأموالاً كثيرة[1]». ومما يذكره صاحب معجم الأدباء من أنه «كان ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يعاديهم ويرتضون بوساطته ويثقون بتقريراته[2]». والذي لا شك فيه أن هذا مما يدل على سمو منزلته واتصاله بالناحية السياسية لعصره اتصالاً مباشراً، وقد صنّف الماوردي كتباً عديدة في الفقه والتفسير والسياسة الشرعية، ومنها كتابه «الأحكام السلطانية» الذي نحن بصدد البحث فيه. وقد ألفه امتثالاً لأمر من تجب طاعته عليه، كما يقول في مقدمته[3]. وله كتاب آخر في نفس الموضوع هو «قوانين الوزارة[4]». والذي يمعن الدراسة في الكتابين يجزم بسعة اطلاع الماوردي وغزارة علمه، ولا يعجب بعد ذلك من مركزه العلمي الممتاز الذي تبوأه في عصره حتى ولي القضاء ببغداد، ولقب بأقضى القضاة[5]». وإن الكتب التي ترجمت له وتعدد [illegible] تذكر كتاب «الأحكام السلطانية» بينها، كما أن كتباً قديمة نقلت عن هذا الكتاب، فقد طبعت لجنة تذكار «كب» الإنكليزية في سنة ١٩٣٧ كتاباً

(١) راجع — ابن الأثير: تاريخ الكامل (طبعة مصر) ج: ٩، ص: ١٤٥.

(٢) راجع — ياقوت الرومي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (طبعة د. س. مرجليوث. مطبعة هندية بمصر — الطبعة الثانية ١٩٢٨) ج: ٥، ص: ٤٠٧ — وراجع أيضاً: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٩هـ) ج: ٨، ص: ١١٣ و١٢٦ و٢٣٣.

(٣) راجع — مقدمة الكتاب المذكور (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٠٩) ص: ٢.

(٤) وقد طبع لأول مرة على نفقة مكتبة الخانجي بمطبعة دار العصور سنة ١٩٢٩ باسم «أدب الوزير» — الحلقة الخامسة من سلسلة الرسائل النادرة.

(٥) راجع: ياقوت: المصدر السابق، ص: ٤٠٧.

في الحسبة اسمه « معالم القربة » لابن الأخوة القرشي بعناية الأستاذ « روبن ليفي » أحد أساتذة جامعة كمبردج ، وقد أشار الأستاذ ليفي في المقدمة التي وضعها للكتاب إلى أنه وجد تشابهاً كبيراً في فصول كثيرة بين كتاب ابن الأخوة المذكور — المتوفى سنة ٧٢٩ هـ — وكتاب « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لابن البسام ، وكتاب « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » للشيزرى — المتوفى سنة ٥٨٩ هـ — ولذلك فهو يتساءل : هل اعتمدت هذه الكتب الثلاثة على مصدر واحد ، أم أن « معالم القربة » قد بني على أحد الاثنين الآخرين ؟ وهو أمر حسب رأيه لا يمكن البت فيه إلا بعد البحث والتدقيق[1] ، ولكن الأستاذ أحمد سامح الخالدى انبرى للجواب على تساؤل الأستاذ ليفي ، إذ أثبت أن ابن الأخوة قد نقل كل ما جاء في موضوع الحسبة من كتاب الأحكام السلطانية للماوردى حرفاً بحرف ، وأنه نسب بعض ما نقله [illegible] بنسب البعض الآخر ، ولذلك فهو [illegible] لكتاب الماوردى[2] .

أما أبو يعلى فبالرغم من البحث فإني لم أعثر على ترجمة وافية له خلافاً لما جاء في كتاب ابنه « طبقات الحنابلة » . ومن يقرأ تاريخ حياته كما جاءت في هذا الكتاب ير أنه كان معاصراً للماوردى . فقد ولد سنة ٣٨٠ هـ وتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، وقد قضى شطراً كبيراً من حياته ببغداد حيث كان الماوردى . وولى القضاء في حريم دار الخلافة في عهد الخليفة القائم بأمر الله . وأنه كان إمام الحنابلة في عهده عارفاً بالقرآن وعلومه والحديث والفتاوى ، وقد

(١) راجع — المقدمة التي وضعها بالانكليزية الأستاذ روبن ليفي للكتاب المذكور (مطبعة دار الفنون بكمبردج سنة ١٩٣٧) .

(٢) راجع — مجلة الثقافة [العدد السابع] ١٤ فبراير سنة ١٩٣٩ .

صنف ما يربو على السبعين كتاباً أكثرها في علوم القرآن وتفسيره ، وفي الفقه والأحكام السلطانية ، وهذه الترجمة التي وضعها عنه ابنه تدلنا على سمو منزلته في عصره ، وأنه كان من أئمة العلم وقادة مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ونال مكانة عالية عند الخلفاء ، وله تأثير عظيم في نفوس الناس ، وقد درس وتخرج عليه علماء كثيرون[1] .

ولكننا إلى جانب هذا لا نجد عنه شيئاً في كتب التاريخ والتراجم الأخرى إلا النزر اليسير في بعضها . فالخطيب البغدادى وهو من معاصريه — توفى الخطيب سنة ٤٦٣ هـ — لا يذكر عنه غير شيء يسير نستدل منه على أنه « كان أحد الفقهاء الحنابلة وله تصانيف على مذهب أحمد بن حنبل وأنه درس وأفتى سنين كثيرة ... وولى النظر في الحكم بحريم دار الخلافة[2] » ، كما أن صاحب كتاب « الكامل في التاريخ » عندما يحدثنا في [illegible] سنة ٤٥٨ هـ يشير إلى أنه « قد توفى في شهر رمضان [illegible] القاضي أبو يعلى وعنه انتشر مذهب أحمد رضي الله عنه ، وكان إليه قضاء الحريم ببغداد بدار الخلافة وهو مصنف كتاب الصفات[3] » . وإن ابن الجوزى يشير إليه في كتابيه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » و « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » بما لا يخرج عن ذلك[4] ، أما بقية كتب التراجم فإنها لا تشير إليه بشيء أبداً . ومن الغريب

(١) راجع — أبو الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى الحنبلي : طبقات الحنابلة (مطبعة الاعتدال — دمشق ١٣٥٠ هـ) ص : ٢٢٧ — ٢٨٨ .

(٢) راجع — أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣١) ج : ٢ ، ص : ٢٥٦ .

(٣) راجع — ابن الأثير : المصدر السابق ، ج : ١٠ ، ص : ١٨ .

(٤) راجع — ابن الجوزى : (١) المصدر السابق ، ج : ٨ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ . (٢) مناقب الإمام أحمد بن حنبل (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٠) ص : ٥٢٠ — ٥٢٦ .

أن ياقوتاً ذكر في كتابه « إرشاد الأريب » جملة نستدل منها ، إذا صح ، أن أبا يعلى لم يكن كما ندعي له منزلة ، بل أقل شأناً بكثير ، إذ يقول : « تقدم القادر بالله إلى أربعة من أئمة المسلمين في أيامه في المذاهب الأربعة أن يصنف كل واحد منهم مختصراً على مذهبه ، فصنف له الماوردي — الإقناع — وصنف له أبو الحسين القدوري مختصره المعروف على مذهب أبي حنيفة ، وصنف له القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن نصر المالكي مختصراً آخر ولا أدري من صنف له على مذهب أحمد[1] ... » فلو كان أبو يعلى إمام الحنابلة ، كما كان هؤلاء أئمة مذاهبهم ، لوضع كتاباً مختصراً في مذهبه مشهوراً[2] . وليس من الممكن أن يكون هو واضع الكتاب الذي أشار إليه ياقوت ولم يعرف واضعه ، إلا أن شهرته على رأي من يرى أنه فيها ومنزلته في مذهب الإمام أحمد التي يذكرها الآخرون ، تكفي لأن يعرفه ياقوت وغيره .

وأغرب من ذلك أن دائرة المعارف الإسلامية التي تصدت للبحث في مختلف مواضيع التاريخ الإسلامي وشخصياته ، واجتهدت ألا تترك شيئاً مهماً دون أن تشير إليه ، نراها خالية من الإشارة إلى أبي يعلى . فإن المستشرق (Goldziher) الذي حرر الفصل الخاص فيها عن الإمام أحمد بن حنبل ومذهبه يذكر في آخر بحثه خلاصة عن كل الأئمة الذين جاءوا بعد الإمام أحمد وكانوا زعماء هذا المذهب . فيذكر أبا القاسم عمر الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، وعبد العزيز بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وأبا الوفاء علي بن عقيل المتوفى سنة ٥١٥ هـ وتقي الدين أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ[3] ، ولا يذكر أبا يعلى كإمام المذهب المذكور ، بل إنه لم يشر إليه بقليل أو كثير . ولعل مما يدعو إلى الاستغراب أيضاً أن أحد هؤلاء الأئمة ، وهو أبو الوفاء بن عقيل كان أحد تلامذة أبي يعلى كما يذكر ابنه في طبقاته ، وكما يشير ابن الجوزي في حوادث سنة ٥١٣ هـ في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم[1] » .

لا شك أن هذا مما يدعو إلى الاستغراب ، وإن الأمر لا يخلو من وجهين : فهو إما أنه كان يكثر حساده ومنافسوه من المصنفين فلم يكتبوا عنه شيئاً يتناقله الخلف بعدهم ، وإما أنه لم يكن بهذه الدرجة من المنزلة العلمية التي يشير إليها ابنه في طبقاته . على أنه مما يضعف الرأي الأول أن ابنه يدعي أن أباه كان مسالماً محبوباً عند أقرانه ، وهذا ما يؤيده فيه غيره ممن كتب عنه من الذين ذكرناهم ، وبخاصة ابن الجوزي . فهم يكادون يتفقون على أنه كان مسالماً زاهداً متعبداً وله الأصحاب المتوافرون .

هذا فيما يتعلق بما كتب عنه على أنه ليس هناك إشارة إلى كتابه « الأحكام السلطانية » مطلقاً ، لا في كتاب ابنه المذكور . وإنما نرجع إلى موضوعنا الأول فنتساءل : من هو يا ترى المؤلف الأصلي للكتاب الذي نحن بصدد البحث فيه ، الماوردي ، أم أبو يعلى ، أم اعتمد الاثنان على مصدر واحد لا نعرفه ؟ ولكننا إذا وازنا بين مركزي المؤلفين وشهرتيهما العلمية ، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار تواتر كتب التاريخ والتراجم على نسبة الكتاب إلى الماوردي وعدم ذكره بين مصنفات أبي يعلى ، ثم إذا أضفنا إلى ذلك اقتباس بعض الكتاب من كتاب الماوردي وخاصة ما ذكرناه من اقتباس ابن الأخوة القرشي في كتابه معالم القربة ، كل هذه تحملنا على أن الكتاب للماوردي باعتباره مؤلفاً مشهوراً ومن أوائل من طرق البحث في موضوع السياسة الشرعية ، ثم إن أسلوب هذا الكتاب وعرضه

(١) راجع — ياقوت : المصدر السابق ، ج : ٥ ، ص : ١٠٥ .
(٢) حين توفي القادر سنة ٤٢٢ للهجرة كان أبو يعلى قد جاوز الأربعين سنة من عمره .
(٣) راجع — دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٣ ، موضوع : أحمد بن حنبل .

(١) راجع — ابن أبي يعلى : المصدر السابق ، ص : ٣٢٨ .

مندل .. بائع الكتب

قصة لستيفان زفايج

بقلم حسن فتحي خليل

عدت إلى فينا بعد رحلة في الضواحي ، وكان المطر يتساقط غزيراً فدلفت إلى أحد المقاهي ولم أهتم بقراءة اسمه حين دخولي ، وما إن جلست وشمرت الأنف وأدرت بصري في جوانب المقهى حتى خيل إلي أني طرقت ذلك المكان من قبل ... منذ مدة خيل إلي أنها بعيدة .. وأن هناك في ذلك المكان تختفي حلقة من حلقات حياتي كما يختفي المسمار داخل الخشب . واستعملت قوة إرادتي وخيالي وإذا بي فجأة أدرك دقائق ملامح رجل منقبض الفم ، وذلك الفراغ بين أسنانه وإيقاع ضحكته المتكسرة واهتزازات شاربه ، وذلك الوجه [illegible] به كلا ضحك ، رأيت كل هذا بوضوح [illegible] كل كله ماثلا في ذلك الرجل ، ولكني [illegible] مازلت في احتياج إلى دفع قوي حتى أشعر بذلك الماضي ماديا . فحاولت ذلك بأن أغمضت عيني حتى تتضح تلك الخطوط العقلية الغامضة ، ولكني لم أستطع شيئا . فغضبت ووجدتني أقف وقد عزمت على الخروج ، ولكني ما كدت أخطو حتى رأيت تلك الصورة الفوتوغرافية تعود ثانية إلى الأمام في مخيلتي ، وأدرت البصر حولي فوجدت تلك المائدة الصغيرة المستطيلة القريبة من مكان (التليفون) وفي ومضة البرق اتضح لي كل شيء ... لقد أدركت على الفور وقد اعتراني شعور من السعادة والأسف ، أن هذا هو مكان يعقوب مندل عشيق « الخط » .. إنني بعد عشرين عاما أعود إلى محله المختار ، ولا أدري كيف نسيت هذه الشخصية التي هي أقرب إلى شخصيات الأساطير ، هذه الأعجوبة العالمية ، ذلك الرجل الذي ذاع صيته في الجامعة وبين فئة مخصوصة من البيئة المثقفة ، ذلك الساحر بائع الكتب ، الذي كان يجلس هنا يوميا منذ كنا ، من الصباح حتى الغروب ، دائبا وأشبه المعرفة الدائبة . يجلس على المائدة الرخامية وقد تكدست عليها أكوام الكتب والنشرات الدورية والمجلات ، يهمهم حين يقرأ ، ويميل بجسمه نحو الأمام وإلى الخلف وهو يهز رأسه الأصلع ولا يشعر بما حوله أبدا .. فهو يقرأ كما يتعبد المتصوفون ، ومثلما يلعب المقامرون .

قدمني إليه زميل لي بالجامعة وكنت أدرس أعمال « مسمر » وأعياني البحث عن المراجع الخاصة به ، وقال صديقي : « إن مندل يعرف كل شيء عن الكتب القديمة والحديثة وسيساعدك .. إنه أعجوبة » وذهبنا إليه في ذات [illegible] ولم يشعر بنا ... كان يقرأ ويتمايل كأنه ورقة في مهب الريح ، ولكن زميلي قرع المائدة قرعا شديدا فإذا [illegible] من فيه ووقفنا ودعانا للجلوس [illegible] فمسح عينه اليسرى وكأنه يجمع أفكاره ، [illegible] ذلك لحظة واحدة ، وإذا به على الفور وكأنه يقرأ في فهرست مفتوح بعدد حوالي ثلاثين كتابا ويذكر مكان وتاريخ نشر كل منها وثمنه الحديث .. فتولاني العجب نحو ذاكرته الفريدة الخارقة للعادة .. إنه يعرف كل شيء عن كل كتاب ظهر ، وعنوانه وثمنه ومكان طبعه ، وهو يعرف الكتب التي ظهرت في كل علم أكثر مما يعرف عنها الأخصائيون فيه . وذلك كله بفضل ذاكرته الجبارة الساحرة .

ولا يعرف تلك الشخصية العجيبة شيئا في العالم كله سوى الكتب ، فكل ظواهر الوجود لا تعدو حقائق بالنسبة إليه إلا حين تتحول إلى حروف مطبوعة .. وهو يحب مهنته هذه ويقبل عليها ، حتى أكبر فيه بعض عظماء فينا ملكته النادرة ، وحاولت الجامعة أن تضمه إلى مكتبتها ولكنه رفض ، فهو لا تغريه النقود ، وهو لا يدخن

ولا يقامر .. وكل ما يتناوله من طعام هو بعض اللبن والفطائر . وكم تعجب إذا لاحظته وهو يمسك كتابا بين يديه ! إنه يقلب الصفحات في عناية وريث فاتقين ، ولا يحب أن يشغله كائن سوى كتابه ، ويبدو بذلك كالتمثال الثابت ، تحسبه في كتاب قديم يحاول الحصول على امرأة جميلة قد غيره ، وهذه اللحظات التي يقضيها في تصفح الكتاب هي ليالي حبه الإفلاطونية ، ومقهى « الحظ » هو مكانه الدائم منذ ثلاثين عاما حين جاء إلى فينا من الشرق ليدرس حتى يشغل وظيفة في مكتب الحاخام ، ولكنه سرعان ما هجر تلك الدراسة وحرفة الكتب فاتخذ ذلك المقهى محله المختار . يدخله يوميا من الساعة السابعة والنصف صباحا ولا يبرحه إلا بعد إطفاء الأنوار في المساء . يجلس في مكانه ويقرأ كتبه ولا يكلم أحدا . إن كل ما يشغله هي ملايين الحروف السوداء التي تحكيها موسيقاه الزجاجية [illegible] .. أما ما عدا ذلك فهو لا يشعر [illegible]

لذلك اعتزل شعور من الحروف [illegible] مائدته خالية ، وقد علمني هذا الرجل كيف يخلص الفنان العالم لفكرته وكيف تكون هي المركز الذي تدور عليه حياته أكثر مما تعلمته من الفلاسفة الخالدين . ومع ذلك فها أنا قد نسيته ، فشعرت بالخجل وصاحبه حب استطلاع عن مكانه الآن . فسألت الساقي ورئيسه — وكانا جديدين عليه فأخبراني بأنهما لا يعرفان أحدا بهذا الاسم ، وعجبت أنا ، لماذا نسيني وهذا التيار الجارف يدفعنا أمامه في قوة إلى النهاية . ثم إذا بي أمشي مغضبا . ولما سألت عن صاحب المقهى القديم قيل إنه توفي بعد أن باعه وليس هناك أحد من القدماء سوى حارسة المعاطف السيدة سبورشيل . فطلبت رؤيتها وأنا أؤكد أنه ما من أحد ينسى شخصية مندل . وجاءتني في خطوات بطيئة وشعرها الأبيض مشعث ، وما إن سألتها عنه حتى لمعت عيناها وهي ترمقني بنظرة طويلة وتقول وهي تبكي : « إنه من العجيب أن أجد أحدا ما زال يذكره .. لقد مات وإني لحزينة أن يموت ذلك الرجل تلك الميتة الفظيعة » وصحبتها إلى مائدة مندل وجلسنا ، وهناك حدثتني — كما توفرت لي بعض المعلومات بعدئذ من جهات أخرى — عن قصة سقوطه .

قالت : نعم ، كان يأتي إلى هنا حين أعلنت الحرب(1) وواظب على الحضور يوميا في ميعاده كعادته ، وكان الكل يعتقد ويؤكد أنه يجهل اشتعال لهيب الحرب ولا يحس بها ، خاصة وأنت تعرف أنه لم يقرأ جريدة واحدة في حياته إذ كان يتجه بكل كيانه وروحه إلى كتبه ولا يحس بأي شيء حوله .. إلى أن جاءت الباصقة يوما فدخل جنديان في صباح أحد الأيام وقاداه إلى الخارج ، ولم يعد ثانية ، ومضى عامان على ذلك وهي لا تعرف سرا لهذا الاختفاء ، ولكنها عرفته فيما بعد كما يأتي :—

لاحظ موظف الرقابة الحربية يوما بطاقة موجهة إلى [illegible] ومرفقة بإمضاء مندل يشكر فيها من [illegible] الأخيرة من نشرة الكتب الفرنسية ، [illegible] الوطني الفني ، فهذا شخص يكتب رسالة من النمسا إلى فرنسا ويضعها في صندوق الخطابات كأي شيء عادي .. وكأن الحدود لم تكن بالأسلاك الشائكة ، وكأن فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا لا يقتل آلاف أبنائها بعضهم بعضا يوميا . واعتبر الأمر مهزلة ساخرة ، واحتفظ بالبطاقة في درج مكتبه ، ولكن بعد أيام مرت عليه بطاقة أخرى مرسلة من نفس مندل إلى كتبي آخر في لندن يسأله عن أعداد مجلة تهتم بالآثار القديمة وقد ذيلها بتوقيعه الكامل . وبعد ساعة كان يعقوب مندل مقبوضا عليه وهو يتعجب لذلك ، ويعرضوا عليه البطاقتين فأقر بأنه هو الذي أرسلهما ، أليس له الحرية في أن يطلب ما يريد . وتعجب الضباط وبدأوا يستجوبونه .. وجر ذلك الاستجواب في أذياله الشقاء لذلك الرجل المسكين ، وإذ اتضح أنه من قرية تقع

(1) الحرب الكونية الثانية سنة ١٩١٤ — ١٩١٨

بقرب الحدود الروسية البولندية وأنه ليست له به أوراق تثبت شخصيته وأنه ما زال رعية روسية ولم يتجنس بالجنسية النمساوية بعد . وكان مندل ينظر نظرات تائهة خلال عويناته وهو يتعجب .. إنه لا يفقه شيئا مما يقال ، والضابط تأملها متعجبا .. كيف يوجد في عاصمة النمسا وفي منتصف الحرب في نهاية عام ١٩١٥ رجل روسي يسير في قلب المدينة هادئ مطمئن البال ويرسل الخطابات إلى فرنسا وانجلترا ولا يعلم البوليس عنه شيئا .. وبعد ذلك يتساءلون عن حركات الجيوش التي تنقل إلى روسيا بواسطة جواسيسها .

ولما سئل مندل : لماذا لم يتقدم بنفسه على أنه أجنبي في أول فرصة ؟ أجاب في براءة غريبة وفي لهجة يهودية هادئة : « لماذا أشغل نفسي بذلك ؟ » وأجاب الذي حين سئل إن كان قد قرأ النشرات أو الجرائد . وحين يعرف مندل إلى السجن ثم نقل إلى أحد معسكرات الاعتقال وهو لا يعرف ما الذي سيفعل به .. فهو لا يعرف الحرب أو أي سوء تفاهم .. بل دنياه كلها معرفة الحروف دائم من منهلها ، وحفظ لعنوانات الكتب وأرقامها وأثمانها فحسب . ولكنه حين جرده من كتبه ومذكراته هاج وماج حتى سقطت عويناته فتحطم ذلك الجهر الذي كان يصله بدنيا العقل والوجدان ، ولا تدرى ما الذي ناله في المعتقل لمدة عامين ، بعيدا عن كتبه ودنياه ، لا يدرى أحد .. ولكن لعل العالم قد شعر أخيرا أن من أفظع فظائع الحروب أن يوضع رجال مدنيون أبرياء قد تعدوا سن الجندية عراة خلف أسلاك شائكة وهم الذين أمضوا في تلك البلاد الغريبة عن بلادهم زهرة عمرهم واعتبروها وطنا ثانيا لهم ، فلم يسهل عليهم تركها في أزمات مثل هذه هاربين فارين وقد أصبحت موطنهم الروحي .

وكان من المتوقع أن يمرض أو يصيبه الجنون لولا أن انتشل من هذه الوهدة في الوقت المناسب . إذ حولت إليه في المعتقل المراسلات التي كانت تصله على مقهى « الجلالة » من كبار شخصيات فينا .. وسمح له الضابط حين عرف شخصية ذلك اليهودي القذر أن يرد عليها ويطالب معونتهم في مساعدته في الإفراج عنه وقد كان . فخرج من المعتقل بعد أن مضى عامين على أن يقدم نفسه يوميا إلى مركز البوليس . فكان عند ذلك .

وأصبح في إمكانه أن يعود إلى حريته وكتبه وإلى ركنه الحبيب في المقهى . ولكنه حينئذ كان يذكر الرائي له بالموت بمجرد رؤيته . فهو هزيل ضعيف بائس أسماله بالية . كلا لم يعد كما كان من قبل ، لم يعد ذلك السجل الحافل بالكتب الجديدة والقديمة ، وكل من رآه في تلك الفترة كان يعتقد أن هناك حاسة قد ماتت من حواسه ، كان يقرأ ... وهو يقرأ شيئا . قد تحطم في نفسه ولا يدرى ... فهو متبلد الذاكرة وكأن عمودا شامخا ... البالية فحجب ذكرياته السعيدة ... فاهتزت نفسه وتخلخل بناؤها ... ذلك الشعور الساحر الذي كان يغمرها دائما . وهو الآن ينظر إلى مجلداته نظرة تائهة ولا يدرى كيف يجيبهم على أسئلتهم ، بل هو ينسى ما سألوه عنه . فترتمي عيناه إليهم في تساؤل ذليل . عيناه قد انطفأ لمعانهما ، وتلبسهما رآها في ذلك المعتقل ذي الأسلاك الشائكة مناظر مؤلمة حتى ظهرت بهما النظرة الحزينة . لم يعد مندل كما كان من قبل ، تلك الأعجوبة التي أدهشت العالم ، بل هو الآن كتلة من عظام وورق وملابس رثة بالية ، لم يعد شرفا يفخر به مقهى « الجلالة » بل هو الآن وصمة عار تلطخ جبينه ، حيث تعاف النفوس النظر إليها .

وهكذا كان شعور صاحب المقهى الجديد الذي كان يتحين الفرص للتخلص منه ، وسرعان ما جاءت الفرصة بعد أن عانى مندل من الفقر المدقع ما عانى ، إذ تمزق ملابسه، وفقدت أوراقه المالية التي اقتصد فيمها ، وأصبح مدينا

بثمن القهوة وقطع الفطائر ، ولاحظ رئيس الخدم أن ثمن مبيعات الفطائر لا تتفق مع الحسابات الجارية ، وحامت شكوكه حول مندل حتى ضبطه يوماً وهو يسترق الخطى إلى المطبخ ويسرق قطعتين ، فصاح فيه صاحب المقهى وطرده . وكان مندل يمشي مضطرباً ، ثم ترك المقهى في ذلة ومسكنة وهدوء ، وقد غاض لونه ، حتى إنه نسي معطفه ، وكان الجو شديد البرودة ، وترك كتابه على مائدته من شدة خوفه .

ولم تلاحظ حيورشيل الكتاب إلا بعد خروجه فاحتفظت به . ولما سألتها عما حدث له بعدئذ قالت وهي مهتاجة العواطف : « مضت مدة طويلة لم أسمع عنه شيئاً خلالها ، ولكن حدث في صباح يوم من أيام فبراير في الساعة السابعة والنصف أن فوجئت بالباب يفتح ومندل يدخل وهو يترنح في مشيته ، وما إن رأيته حتى أيقنت أنه لا يعرف شيئاً ، وأنه كمن يسير في نومه دون أن يشعر ، وأنه نسي كل شيء عن الفطائر وصاحب المقهى . ولم يكن هذا الأخير ولا رئيس الخدم قد حضر ... لأنصحه بعدم البقاء ، فإذا به يتذكر ... وأسرع في خطى مضطربة نحو الباب ... مغشياً عليه . وفي المساء مات متأثراً بالتهاب رئوي حاد ، وقال الطبيب إنه جاء إلى المقهى بتأثير الحمى وهو لا يدري . يا إلهي ! لقد كان على حق ، إن الإنسان إذا ما لازم مائدة لمدة ستة وثلاثين عاماً أصبحت هذه المائدة بمثابة بيته وكل شيء لديه ! وبقينا نتحدث عنه نحن الذين نعرف آخر مرحلة من حياته .. فهو ذو فضل أدبي عليّ » وهي قد جمعتها به صلة الفقر طيلة هذه المدة . وبعدئذ قامت فأحضرت لي الكتاب الذي تركه ، ولم أتمكن من أن أمنع الابتسامة التي ارتسمت على شفتي ، لأن المقادير التي تلعب بنا وتسخر ، تخلط الهزل بالعواطف العميقة ، فلم يكن ذلك الكتاب سوى موسوعة عن مجمل أدب الغرام والغزل وكتاء المصادفة أن يكون ذلك هو آخر أثر لذلك الساحر الفاني يقع بين هاتين اليدين الفقيرتين المسنتين الجاهلتين اللتين لم تمسكا بأي كتاب ، اللهم إلا كتاب الصلاة ، ووجدتني أقول لها : « لا تقلقي واحتفظي بالكتاب فإن صديقنا الشيخ مندل ليغمره السرور حين يعرف أن هناك على الأرض شخصاً واحداً من الآلاف الذين غمرهم بفضله ما زال يذكره » .

وخرجت وقد شعرت بخجل في نفسي إزاء هذه المرأة العجوز الطيبة التي بقيت مخلصة لذكرى ذلك الرجل الشريف على طريقتها السهلة القديمة الإنسانية الدائمة ، فمع أنها امرأة جاهلة لا تقرأ ، ولكنها ما زالت محتفظة بكتابه ليكون لها ذكرى له .

وهأنذا ... لقد نسيت مندل لمدة سنوات .. أنا الذي عليه أن يعرف أننا خلقنا الكتب لتصل أرواحنا بأرواح من يلينا ، ولندافع بها عن أنفسنا ضد أعدى أعداء الحياة وهما الفناء والنسيان .

حسن فهمي خليل

فجيعة حلب

بعالم مصري جليل

فقدت حلب الشهباء في الأيام الأخيرة سيداً من سادتها الأكارم وعالماً من علمائها البارزين هو السيد محمد شرف الدين الفاروقي المصري الذي قضى ربع قرن يعلم ويؤلف ويكتب ويخرج التلاميذ أحسن تخريج.

قدم رحمه الله إلى حلب سنة ١٩١٧ زائراً فأعجبه لطيف مناخها وشدة شبهه بالقطر المصري فعزم على الإقامة فيها، وما إن ثبتت قدمه فيها حتى تواقدت عليه أعيان البلدة ووجوهها وأذكياؤها يفيدون من علمه وفضله في حلقات كان يعقدها بمنزله بشارع السكة الجديدة بباب النصر. وقد صارت حلقاته هذه مكاناً عاماً بحلب. كما كان كثير من أهل الفضل يدعونه إلى منازلهم ويستمعون إلى أحاديثه لما كان عليه من فصاحة اللسان وسعة الاطلاع وحلاوة المنطق، وما زالت صلة السيد الفاروقي المصري بحلب وأهلها تقوى حتى إذا عزم على الرحيل منها إلى بلده مصر، تفننوا في اختراع الحيل لإبقائه بين ظهرانيهم حتى تحققت لهم هذه الأمنية. حدثني رحمه الله قال: لقد طوفت في بلاد الشام والمملكة العثمانية بلداً بلداً فأعجبت بالقدس وحلب إعجاباً عظيماً، وكنت كثيراً ما أمني النفس بقضاء بقية العمر في إحدى هاتين البلدتين ولكن أنى لي هذا؟ بأن الأيام قلبة والحياة صعبة، وما كل ما يتمنى المرء يدركه، ثم جرت المقادير بما أردت، فها أنذا أقيم في حلب العزيزة وأرجو أن أقضي العمر فيها. وإن ما لقيته من أهلها من عطف وولاء، وحب ورعاية قد أنساني مسقط رأسي ودياري:

بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدان
ومن مصر إلى يمن ... إلى نجد فتطوان

صدق قائل هذين البيتين يا صديقي بأن بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها هي موطني وأرجو أن أمتع ناظري برؤيتها متحدة متفقة، ذات سيادة وعزة وكرامة ومنعة. هكذا قال لي السيد الفاروقي منذ أكثر من عشرين سنة، وبهذا كان يبشر في كل محفل وفي كل بلد يحله، ولكنه مضى إلى ربه وما شهد حتى يرى بأم عينه بوادر هذه الوحدة الحبيبة إلى قلبه.

***

كان السيد الفاروقي ضخم الجسم، طويلاً، عريض المنكبين، جميل الصورة، أسمر شديد السمرة، واسع العينين، رائق الحدقتين كأن الذكاء يشع منهما، وكان حسن الحديث، محافظاً على لهجته المصرية، مؤدباً، ما سمعت منه كلمة نابية ولا عرفت أنه خاصم أحداً، ولا أساء إلى أحد، وكان وراء ذلك كله جيد الصوت حسن المعرفة بالموسيقى والأنغام قديمها وحديثها، وكان حسن البزة أنيق الملبس يحسن انتقاء ثيابه ويختار أفضل الألوان وأكثر ما كان يفضل اللون الكحلي أو الأسود الناصع على غيرهما من الألوان، وكان ينتقي أفضل الخياطين وأمهرهم وأكثرهم صلة ببيوت الخياطة الباريسية، وكان شديد العناية بتجميل بيته، يختار له أفضل الرياش وأجودها وأكثرها أناقة، وكنت إذا دخلت بيته وجدت نفسك في متحف صغير يضم أجمل التحف وأحسن الآثار، وأعجبتك روعة الذوق والاتساق.

***

حدثني رحمه الله أنه ولد بمصر سنة ١٨٧٩ وأنه تلقى العلم على شيوخ الأزهر فبرع في العربية وآدابها، وحفظ القرآن وعلومه، والتاريخ، والحديث، وجود في ذلك. ولما أتم دروسه الدينية تطلعت نفسه إلى التكمل والازدياد من العلم فرحل إلى القسطنطينية وكانت، في أوائل هذا القرن، مركز الحركة العلمية في البلاد الإسلامية فرحل إليها ودخل دار الفنون وبرز فيها واتصل هناك برجالات العرب الذين كانوا يشتغلون بالسياسة العربية كالمرحوم الشيخ

عبد الحميد الزهراوي والسيد عبد الرحمن الكواكبي وهي السيد محمد نافع طلس وغيرهم، ولما انتهت الحرب العالمية الماضية بما انتهت إليه قصد سورية وأقام في حلب فأحبه أهلها، وكان كلما عزم على الرحيل إلى بلاده منعه أصدقاؤه الكثيرون وتلاميذه ومحبوه، نذكر منهم هنا المرحوم السيد فؤاد المدرس، والمرحوم السيد نشأة المدرس، والمرحوم والدي السيد عبد الوهاب طلس والسيد توفيق المشارقي مدير المعارف العام في سورية اليوم وغيرهم، وقد صار منزله في أواخر أيامه منتدى الجمع يجتمع فيه الرجال ويتناقشون في مسائل العلم والأدب والسياسة، ويفد إليه الشبان فيتعلمون منه ما يجهلون من مسائل التاريخ والأدب والحضارة والسياسة، ولما رأى الضرورة تقضي بأن يكون ميدان عمله أوسع، أصدر جريدة «الميثاق» وأصدر فيها قرابة عشر سنوات، أوزيد الاتصاب ورجاله [illegible] إلى مكارم الأخلاق والتآلف [illegible] التدريس في مدارس الحكومة [illegible] وخرج جمهرة صالحة من الطلاب [illegible] المعارف إلى إدارة مدرسة التجارة فقام بعمله خير قيام، ولكن المرض دب في جسمه فظل يعمل على الرغم من شدة آلامه حتى لم يعد يطيق له احتمالا، فترك حلب إلى بيروت حيث دخل المستشفى الأمريكي ولم يلبث هناك طويلاً حتى وافته منيته فمات مبكياً على علمه وخلقه وأدبه.

● ● ●

بكت الشهباء في الشهر الماضي فقيدها وأقامت له حفلة كبرى في قاعة مدرسة التجهيز الرسمية، بكاه فيها أصدقاؤه وتلاميذه وعارفو فضله، وقالوا فيه الشيء الكثير. فرحم الله تلك النفس الطيبة التي ماتت شهيدة في سبيل المثل الأعلى، ونكران الذات.

لقد فقدت حلب بموت السيد الفاروقي أديباً بارعاً وخطيباً مفوهاً عرفته منابر حلب وجمعياتها وحفلاتها العامة ومدارسها الوطنية والأجنبية. فقد كان يرتجل الخطبة البارعة الموفقة التي تضم إلى حسن التفكير وسداد الرأي أدباً جماً وفصاحة حسنة وبياناً مشرقاً، واستشهاداً محبباً، وصوتاً ساحراً.

● ● ●

تلك هي الخطوط الرئيسية لحياة هذا السيد الجليل الذي كان أنموذج الرجل الصالح في عمله وخلقه وعلمه وسياسته. وقد كانت له مزايا أخرى يجهلها الناس إلا من كان شديد الاتصال به، ومن ذلك أعمال الإحسان والبر التي كان يقوم بها، فقد كان ينفق أكثر موارده على الأيتام والأرامل والفقراء من الطلبة، وكان كثير من أغنياء حلب يعطونه الأموال الكثيرة ليقوم بتوزيعها على أهلها المستحقين من صغار الطلبة والطالبات الأيتام، وقد كانت له اليد المشكورة في تأسيس دار الصنائع النسائية [illegible] عدداً كبيراً من البنات والفقيرات [illegible] الإيمن بمعاونة السيدة الفاضلة [illegible] التي فقدت بموته عوناً عظيماً.

● ● ●

أحسن الله إلى السيد الفاروقي بما أحسن إلى حلب وأهلها، وجزى الله مصر خيراً على هديتها الثمينة التي لن ينساها أهل حلب وشبابها.

الدكتور أسعد طلس
عضو المعهد الفرنسي بدمشق

بنت الشيطان وقصص أخرى

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

شرح وتحليل بقلم الأستاذ صديق شيبوب

انصرف الأستاذ محمود بك تيمور منذ عامين أو أكثر إلى تأليف القصص المسرحية حتى أرجو ما كتبه منها على النشر ، ولكنه لم يهجر فن الأقصوصة الذي يعتبر من واضعي أسسه وموضحي نهجه . وقد طالعنا مغتبطين المجموعة الجديدة من الأقاصيص التي نشرها بعنوان «بنت الشيطان» وصدرها ببحث في « أثر القصة في تربية الشعب » تناول فيه فن القصة من حيث قدرته على توجيه الشعب إلى نواح خاصة في الحياة .

وقد أصاب حين قال في هذا البحث إن القصة من خير الوسائل لهداية النفوس ونصرة مكارم الأخلاق . ولكن لنا أن نتساءل : أليس من التضييق على فن القصة أن نخضعه للأغراض الوطنية والاجتماعية ؟ وقد أجاب الأستاذ تيمور لهذا السؤال في شكل صارخ ، وحدد تناول مهمة القاص من ناحية التعبير الصادق عن إحساس الفنان في صدق ... فقال : « إن القاص الموهوب بحسه المرهف ويقظته الحادة في الشعور بأدق الخلجات التي تسري في المجتمع ، قدير على أن يقتنص الحق العميق الكامن في واعية الجمهور فلا يلبث أن يعبر عنه ، فهو يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه فيترجم هذا التأثر — قبل أن يحس به سواه — في عمل قصصي ... »

إن هذه النظريات الصحيحة في نفسها لا تحمل على الفن واجباً أخلاقياً يتعارض مع الحرية التي يجب أن تسوده وأن يتمتع بها الفنان ؛ لأن الصدق لا يستقيم إلا إذا وهبته الحرية .

ولعله يسود موقف القاص المصري من الحياة الاجتماعية الراهنة عوامل قد تحول دون تمثيل هذه الحياة في فنه . أهمها الاضطراب الذي يساور حياة القاص العقلية وسط مختلف التيارات الأدبية والاجتماعية التي تتجاذبه . وبالرغم من هذا الاضطراب فإننا نلاحظ أن بعض القصاصين — وفي طليعتهم الأستاذ محمود تيمور بك — استطاعوا أن يمثلوا بعض نواحي الحياة المصرية ، وأن ينفذوا إلى صميم الروح المصرية .

أما أقاصيص مجموعة بنت الشيطان فثمان ، وهي جميعها تحمل طابع أدب مؤلفها الفاضل : أناة في العرض واقتضاب في الوصف ، وتبسط في الأسلوب وحذق في بناء الحبكة ... إلى غير ذلك من المزايا الأدبية التي يعرف بها أدب الأستاذ تيمور .

وأول أقصوصة تطالع القارئ في المجموعة هي « بنت الشيطان » . وقد قيل في وصفها إنها « أسطورة » وهي من نوع القصص الفلسفي الذي يمزج بين التفكير اليوناني والفن الحديث ، والذي يراد منه الكشف عن طبيعة الإنسان وغرائزه ، وعن علاقة هذه الغرائز بتلك الطبيعة بحيث لا تنفصم عنها ...

وأراد الشيطان منه أن يثبت أنه « أهل لغير الشر » فصنع مملكة ... إنسانة لا تعرف الشر ولا الألم ، تحيا في سعادة دائمة وطهر أصيل ... ومن ثم تمكنه أن يمشي على غرارها مثالا نموذجياً لم تحلم بوجوده البشرية » وللوصول إلى هذه الغاية ابتنى قصراً مسحوراً وجاء بطفلة في ساعة ميلادها وأقام على خدمتها وتعليمها والعناية بها مهرة من الجن أوصاهم بما يحقق أغراضه ، فأنشئوا حولها جوا من البساطة والصفاء ، وكانوا يلقنونها دروس الحكمة وأدب السلوك وأصول الاجتماع وفق برنامج يبعد عنها الشر والإحساس بالألم . ولكن « زوبعة » وكان أميراً مغامراً توسل إلى دخول القصر المسحور والتسلل إلى مخدع « أزاهير » ، وهو اسم الفتاة ، وتحدثت الفتاة إلى الأمير فعلمت منه أشياء كانت تجهلها ، ثم حملها ذات ليلة إلى عالمه ... وفي الليلة التالية أفلتت من القصر هاربة إلى العالم الإنساني الذي لفتته مرة . وهكذا تغلبت طبيعة الإنسان بما فيها من فضول إلى المعرفة ، ومن غرائز تدفع بصاحبها إلى الحياة الصاخبة . حياة تمتزج فيها اللذة والألم

والمرفة الجميل والحب النبيل . . . فلئن هذه الطبيعة على حياة متصلة تحاول تطهير تلك الغرائز والسمو بها فوق طبيعة البشر وطاقتهم .

ويطالع القارئ بعد « بنت الشيطان » أقاصيص أخرى ، منها ما يمتاز بالخيال « الرومانسي » مثل « خصام » و « الجنتلمان » و « ليلة الرعب » ومنها ما يرسم صورة أخلاقية تختلف بين الواقعية والوجدانية ، مثل « الترام رقم ٣ » أو « قدح ماء وليمونة » . . . إلى غير ذلك مما يشبه مطالع المجموعة ، ويستبين القارئ كيف كان أديبا قصصيا رفيعا ، وأسلوبا فنيا طيبا ، وروحا إنسانية عالية ، وتجارب بشرية صحيحة . ولا عجب فإن فن الأستاذ تيمور يجتمع فيه كل هذه الميزات الجديرة بالإعجاب والحمد والثناء .

حسين شوكت

بين المسموع والمقروء

محنة أخرى

ما أعجب الأقدار !

ثلاثة رجال يهبطون وادي الموت ، حيث تتقطع بهم أسباب الحياة ، فلا يكون لأحد منهم أمل في صوبة ، ثم يأخذون يضربون في مجاهل الفناء أحد عشر نهارا وإحدى عشرة ليلة ، يد كرهم النهار بالحياة ومفجوعها ، ويذكرهم الليل بالقبور وظلمتها ، ثم يقضي لهم آخر الأمر أن لا يعبروا هذا الوادي فيجوزوا إلى الحياة والأحياء مرة أخرى غير واحد منهم ، ليس بأقوامهم ، وليس بأكثرهم عرضا لنوائب الزمان ، ويجوز هذا الواحد ليحكي ما جرى ، وما يمكن أن يجري للإنسان عندما يلقى الموت صريعا لا قبيح [illegible]

كان الثلاثة في طائرة في ظلام الليل . . [illegible] فرغ وقود الطائرة على غير حسبان [illegible] الهبوط . وهوت الطائرة تطلب البحر [illegible] أجمعين في سواد الماء الذي خيل إليهم في ضوء مصابيحهم أنه هو الذي يقترب منهم ، لا أنهم يقتربون منه ، وطال زمان اقترابه لخيل إليهم الدقائق أنها ساعات . وأخيرا وجدوا الطائرة تحط على الماء ، محطاطة بزعة غير عنيفة ، لم تمزق بهم إلى قاع المحيط كما حسبوا ، ولم يتحطم لها أنف ولم ينكسر لها جناح .

وكان صاحب هذا الهبوط البارع ، طيار الطائرة الأول ، واسمه ولم . وكان معه الطيار الثاني واسمه مارتن . ولم يكن في الطائرة راكب غير رجل يدعى إلزي ، كان في حياته قبل الحرب رجلا من رجال الطاقة .

ولم يكد يعود إلى الثلاثة رشدهم ، بعد تلك الصدمة الهائلة ، حتى استفاق أولهم أن الماء أخذ يدخل إلى الطائرة من أنفها ويصل إلى ركبتيه . وعندها صاح : هيا نخرج من هنا يا صحاب .

وذهب الطاران إلى قلب الطائرة يلتقطان ما جرى [illegible] وأخرجوا جميعا ما قدروا عليه من أداة وطعام ، [illegible] وأطلقوها فوق الماء ، وربطوها [illegible] . وانتقلوا إلى البالغة واحدا بعد واحد ، فما كان أحدهم نصيبها . وزادها ضيقا ما حملوا من عدة ومتاع .

وعزموا أمرهم على أن يتشبثوا بذيل الطائرة ما أمكنهم ذلك . ولكن الحبل أفلت من أيديهم لاضطراب البحر ، ورموا بحبل إليه ، فما كاد يشتبك بالذيل حتى انفلت . وأخرجوا مجدافين ، وبسطوهما من بعد الطواف ، وحاولوا بهما أن يقتربوا من الطائرة ليعتمدوا عليها ، ولكن البحر خذلهم خذلا فنزلوا فيه مما في أيديهم إلى ما في بطونهم ، فقد ترك الفزع ما في أمعائهم زبدا . موج هائل يتسلقونه كتسلق التلال ، ثم يهبطون من بعده هبوطهم إلى الوديان ، وحسبوا أن أمعاءهم قد بلغت حلوقهم تريد أن تخرج مع الطعام ، وأبعدوا عن الطائرة ، ولكن ظل يهديهم إليها نور شديد ينتشر من مصابيحها . وفجأة ذهب النور ذهاب الأرواح ، فوجموا جميعا لذهابه ، ولم ينبسوا بكلمة

وقضوا تلك الليلة الأولى يشربون الماء من عطشهم وهم يطلبون الصباح ، يطلبون النور ، يطلبون رمز العيش ودليل الحياة . ويطلبون الشمس لتجفيف ملابسهم . فطلع عليهم الصباح آخر الأمر بشمس مريضة لا تدفئ جسما ولا تجفف ثوبا . وقضوا النهار يفحصون ما لديهم من مؤونة ، فكانت بضعة من علب بها الطعام ، وبضعة من أخرى بها الماء ، ولم يكن فيهم رغبة في الطعام ، ثم أحسوا العطش فشربوا ما أرادوا ، حسبانا أن الخلاص لابد آتيهم . والسجائر أشعلوها ، فالتقطوا بعض النشاط . وأرادوا التشجع ، فبدأ أقدرهم على المزح ، يسألهم لو أنهم خيروا أن تكون لهم على هذه السابحة صحبة ، فأي النجوم يختارون . فاختار أولهم هيدي لامار . واختار الآخر بتي دافز . أما الثالث ، رجل الطاق ، فاختار قطعة من أرض صلبة يحتضنها احتضانا

وقامت نفوسهم ، فتوجهوا إلى الله يدعون . ولم يكونوا احتفظوا بالأدعية ، فاخترعوها

وجاءت الليلة الثانية . وكان لابد لهم من الرقاد فأقاموا أحدهم حارسا ، وينام الآخران [illegible] وهي ليلة ، فما تحرك أحدهم حتى أيقظ صاحبه . وكان نوما مهوشا متقطعا

وأيقظ آخر الحراس صاحبيه على ضوء بعيد حسبه منارة . وظل الثلاثة يصرخون ليلفتوا ساكن المنارة وحارسها ، ولم يكن لندائهم من جواب . ومضى الزمن ، فإذا بالضوء يرتفع ، وإذا به منارة من منارات السماء لا منارات الأرض — وإذا به نجم أشرق ثم علا فأعطى بطلوعه أول أمل لهم في النجاة

وأشرقت شمس هذا اليوم ، فنشروا ثيابهم فجفت . وأحسوا الجوع ، فأقاموا أحدهم على تقسيم الطعام . وكان درس ذلك في مدرسة خاصة . فاقتسموا هذا اليوم نصف علبة من لحم وجبن . وظهرت لهم طائرة فصاحوا بها . ولوحوا بكل ما وقعت عليه أيديهم دون فائدة . وفي قعر السابحة الأسود رأى طيارهم الثاني أن يتلفع بثوب أبيض كان فيه من [illegible] مرفوع ، ليظهر أبيض في زرقة الماء ، فتلفت الطائرة ، ولكن لم يقدم ذلك إلا ضحكا ضحكوها لرأي هذا العاري الذي تشجع عثرته ، فقد ظهر كالبلهاء في تحذلقه وعريه . وذهبت الطائرة وذهبت معها آمالهم

وذهبت خفة الهزل ، وحل محلها وقار الجد ، فكان أشبه بوقار الساعة . فأخذوا يذكرون الأهل والأصدقاء . وتساءلوا هل بلغ نساءهم بعد فقدهم ؟ وقال وليم ، الطيار الأول ، إنه ترك لمستخلفاته عنوان صديق له ليخبره الخبر ، لأنه لم يشأ أن يبدأ بإزعاج زوجته . وقال الآخر رجل الطاق ، إنه ود أن يخبروا أخته قبل أمه ، لأنها تكون أكثر احتمالا ، وإذا بلغ الخبر أمه بعد ذلك ، كانت الأخت قريبة منها ، فأقدر على المواساة . وذكر ماتون ما كان قد أثل بعد الحرب من مركز في مال في [illegible]

[illegible] بعد الظهر فأكلوا نصيبهم ، وزاد الأكل عطشهم [illegible] ولكن تلك الحصة القليلة التي لا تروي [illegible] إذا أرادوا قليلا . وكان وليم أشكاهم [illegible] العطش ، فشربوا له [illegible] نصيبه

وحلوا في الليلة الثالثة . وهاج البحر فأخذ يلطم السابحة فكأنما كانت تلطمها يد عامدة ، ولم يمنع هذا النفر منهم من النوم ، ونام الحارس يقظا . واستيقظ الاثنان وهم في ماء البحر ، فقد كانت السابحة قد انقلبت بثلاثتهم من لطمات الأمواج . واستيقظا وأرجلهما وأيديهما تسبح على غير وعي منهما في الماء . وأخذوا في الظلام يعدلون السابحة ، فكانت موجة أعانتهم على عدلها ، فشكروا لها . وصاح وليم صيحة أفزعت صاحبيه فقد كاد يخنقه الماء . فقررا أن يحملاه أولا إلى السابحة ، ثم لحقا إليها . ووقف ثلاثتهم يلهثون كما تلهث الكلاب . ولاحت منهم التفاتة إلى ما احتوت السابحة ، فسقطت قلوبهم في بطونهم عندما استبانوا أنهم فقدوا أكثر أشيائهم ، حتى الطعام فقدوه إلا علبة من لحم . والماء بقي أكثره ، فقد كانوا ربطوه تحت المقاعد . ونسوا أن السابحة تنقلب فلم يحتاطوا

لها . ولا نظمهم الموج قسوة فظلوا في مقاتلته ، ينتقلون من طرف الساقة إلى طرف حتى لا تنقلب . ولكنها انقلبت مرة أخرى . وعانوا ما عانوا في تصحيحها ورکوبها ، واتكلوا على ظهورهم وقد قرسهم البرد واستنزف قواهم هذا الجهد . ولكنهم ما لبثوا أن استقاموا خشية انقلابة أخرى تكون هي الأخيرة

وطلع النهار الثالث فلم يكن في شمسه غناء ، ولا لهم فيه لتجفيف أثوابهم من رجاء . وغلب عليهم الجوع فقسموا ما بقي من مفتوح الطعام ثلاثة أقسام يلعقها اللاعق فيلقيها في جوفه بلعًا . وبقيت من الطعام كله بقية — علبة مقفلة . ورعف ولم عن أصيبت فأرقدوه على بطنه ليقوى . ورأوا الرشى البحر لأول مرة ، فكان ذا عرض وذا طول فأمرع وأخلف . وحسبوا أنه ذاهب تحت الناقة فقالبهم ، ولكنه مضى عنهم بسلام . ومر بهم في هذا النهار طائرة رموا لها بالصواريخ فما رأتهم . ودخلوا في الليلة الرابعة . وكانت توقفت ساعات ... بما يمضي وليلا ، فوقفت على صاحبيها ... الساعة ، وكانت الساعة الثامنة مساء يحسبونها الأولى أو الثانية بعد نصف الليل . ومرت عليهم الساعات كأبطأ الأشياء . وتسلى الرجل بالماء يحركه بين الناقة . وحلا الحديث فذكروا الفنادق وطعامها وشرابها وأفرشتها الوثيرة الناعمة ، وذكر طقاء الحراثي أن في بيته في الريف رحلا تنزل فيه العطر فيملؤه ، فكان من أحسن لذاته أن يغمس فيه رأسه كله . فصاح بهم بالك ، غيروا الحديث بالله فهذا شأن يدنا إلى الجنون .

ومضى اليوم الرابع ومضت ليلته على وتيرة قاتلة

وجاء اليوم الخامس ، فظهرت لهم طائرة . ورموا في أعقابها الصواريخ فما رأتهم . وشربوا في صباح هذا اليوم ، فلم يبق من زادهم غير شربة واحدة . وفتحوا آخر علبة للطعام فما كلوا نصفها ، وأبى ولم أن يأكل منها خشية التعطش . وانفجروا يتحدثون عن ذنوب الحياة ، فما أغرب ما أطلقت الألسنة وانفتحت القلوب

وتواعدوا على التكفير إذا نجوا ، وما كانت الأحلام تخف في الميزان . وخردهم العطش بالطعام أشد ما يكون ، فشربوا بقية الماء ، واحتفلوا بشرابه احتفالا . وفرغ الوعاء فتناولوه مرة أخرى ، يلعقون ما بقي من قطراته

وجاء الليل وأعقبه النهار وهم يتصيدون القطر النزر في الصفائح قطرات ، وزادت الأجسام الملتئة على الأيام وأنًا ، وزادت نحولا . واللحى نبتت وطالت . وبقيت فيهم مع ذلك بقية من فكاهة . قال أحدهم لأخيه : يا صاحب القداسة ، ما أشبهك في نحولك ولحيتك بالسيح في محنته .

وانقلبت الناقة بهم في اليوم السادس ، ففرقتهم أي تفريق . وبالبقية الباقية من قواهم أصلحوا الحال وصعدوا إلى مراقدهم من تلك الناقة . وشرب ولم من ماء البحر ... شرابا كثيرا . وكان أكثرهم انبطاحا تحت ثقل ... أكثرهم تأثرا بها . فلم يمض وقت طويل حتى ... فأخذ يهرف بالكلام إلى التخيل والخروج ... منها ، على غير المعهود في طبيعه ، ... لحا فأخذ يقطعه بأظفاره . وآذته قراحات في اليد وظهره ، فقام يطلب الخروج عن الناقة والمشي فوق الماء . وحاول صاحباه تسكينه فسكن . وبأتي العصر فتنقلب الناقة من جديد ، ويبعد ولم عنها عشرة من الأمتار . فيدفع صاحباه الناقة ناحيته ، ويحاولان انتشاله وهو يغطس تارة ويظهر تارة . ورفعاه إلى الناقة وهو مفتوح الفم ، مفتوح العينين ولكن لا يرى شيئا . وأرقداه بينهما وغطياه بثيابهما ، وأراد أحدهما أن يميته حتى بالذي ليس منه رجاء . وكان في جيبه أقراص من السكاكاريد ، فدس منها في فم ولم ، فما كان إلا أن صرخ ، لأن ولم مضى إحساسه ظنا منه أنها طعام

وأخذ صاحباه يدعوان له الدعوات . حتى إذا خيم الليل ، جسوا نبضه فما وجدوه . واصفر وجهه وبرد جلده ، ولم يبق فيه أثر الحياة . وخشي صاحباه أن لا يكون قد تمدد في سباته ، ولم يبرحا صابرين للتمهيد فاتخذاها

إيقاعها ، ورشًا فوق وجه الماء .

واعتزم صاحباه أن يستبقيا جثة صديقهما الراحل بينهما أطول زمن . فهيآ لها مكانا في وسط الناقة . وصمتا زمانا ، حتى شق أحدهما السكوت فعبّر عما يجرى في خاطرهما : ليت شعرى كم بقى من الأيام لنكون هكذا .

وأصبح الصباح ، وجاء الظهر فرأيا أن الوقت حان للدفن وتبادلا الرأى في ذلك ، ودعوا الله أن يوفقهما فيما اعتزماه . وبعد أن هيآ الجثة حاولا بما بقى فيهما من قوة أن يُنزلاها إلى الماء .

وبقيت على الماء طافية دقيقة ثم مالت فغطست ودوائرها يتبعانها بالدعوات . وأطال نفسهما أنهما نظرا فرأيا على سطح الماء قرشا من قروش البحر يبحث بيده الوديعة التي أودعاها باطن المحيط

وبقى الصاحبان وحدهما . وألحّ عليهما العطش . فقال أحدهما لصاحبه إنه سمع أن الذى يخرج من الجسم من ماء ينقع من العطش إذا هو شربه . وقال الآخر إنه لا بد من [illegible] قلبه ليصلح شرابا . وبعد نقاش ، [illegible] البول من غير إقلاء . فشرباه . ولكنهما [illegible] عدلا من شرابه

وانكفأت بهما الناقة مرة من بعد مرة ، وكانا قد حسبا أن ذهاب صاحبهما سيخفف عنهما حمله إلى الناقة . ولكن قواهما هبطت فلم يكادا يحملان أجسامهما إلى الناقة إلا بالجهد الكبير

وسمع أحدهما صفيرا ، ولم يسمعه صاحبه . وألح عليه الصفير حتى كاد يسمعه صاحبه

وزاد جسمهما تقرّحا ، وزادت أرجلهما انتفاخا

والجوع فعل بهما أفاعيله . فحاولا صيد القروش في البحر ، وبذلا لها كل طُعم ، فلم تستجب لطُعمهما ، لأنه لم يكن مما تأكل الأسماك . وخطر على بالهما أن يصنعا من جلود شفاههما المتشققة طُعما ، ولكنه لما بلغ الماء ، فتبلل به ، انفصل عن صنارته . وحاولا صيد السمك بدق رأسه بالمجداف ، فما أفلحا . وأخيرا قرما إلى بعض ملابسهما ، وهى من جلد ، ظنا منهما أن بها غذاء ، فصدّهم عنها سوء طعمها

والعطش لا يرحمهما ، فحاول أحدهما شرب جرعة من البحر ، فصاح به صاحبه محذرا فأفرغ فاه بعد امتلائه

وجاءت الليلة العاشرة فكانت أسوأ الليالى . فقد انقلبت بهما الناقة فيها مرات ثلاثا . ووقع الموج أحدهما ، طلقاء الطرائق ، إلى السماء رفعا ، فلما حطّ ، حطّ في الماء . وركبهما هذه الليلة وقد حسبا أنها الخاتمة . فقد ثقلت عيونهما بالنوم ، فلم يستطيعا لها فتحا . ونزل قليل من المطر فاستقبلاه بفمهما . ولكن وقع القطرات على جلودهما كان يؤذى عيونهما لشدة ما بهما من ضعف

ثم يرد أحدهما اسم ابنه الصغير . ويأخذ الآخر يسمع هذا الصغير . ويناقش بعضهما بعضا في هذا الصغير فلا يعلمان أهو حقيقة أم خيال

و[illegible] عليهما الخيالات ، وتلحّ الأحلام ، وأكثرها [illegible]

و[illegible] الأخير ، تنكفئ الناقة فيه المرة الأخيرة [illegible] في إليها ، وبعد أن ظن أنه غير صاعد يحاول أن يرفع أحد ، طفت الحريف إليها . ولكنّ الطلاء على أنها محاولة فاشلة . فقال لصاحبه لستُ أقوى ، لستُ أقوى ، إنى ذاهب . وفي هذه الساعة طفت موجة فأصعدت راكب الناقة . فلما فتح عينيه بعد ثوان ، نظر ، فإذا صاحبه يغطس في الماء كأنه لوح من حجر

وعندئذ ينقطع هذا التخاطب عن صاحبه ، ينقطع حيث هو ، أكثره على الناقة ، وأقله في الماء . ثم تزحزحه الأمواج حتى يدخل كله رويدا رويدا إلى الماء

ثم يستيقظ ... إنهم الناس ! وإنها الأجراس تدق . إنها سفينة ! وإنه أضعف من الأصوات ، ولولا ، قد أنقذوه ورويدا رويدا يعود إليه وعيه . فيحكى القصة كلها والذى تحدثه منها : كيف أن الله شاء له وحده البقاء ، وشاء لصاحبيه الفناء . ولم كان هو هذا الواحد !

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر